مجلة معهد الإمام الشاطبي

شروط تدبر القرآن الكريم وموانعه

د. خالد بن عثمان بن علي السبت

الأستاذ المساعد بقسم الدراسات القرآنية كلية التربية - جامعة الدمام

- من مواليد عام ١٣٨٤هـ بمدينة الدمام بالمملكة العربية السعودية.
- تخرج في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الإمام بمدينة الأحساء عام ١٤٠٥هـ.
- نال شهادة الماجستير من قسم التفسير وعلوم القرآن - كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية عام ١٤١٢هـ بأطروحته: "**دراسة تقويمية لكتاب مناهل العرفان للزرقاني**" (مطبوعة)، كما نال شهادة الدكتوراه أيضا منه عام ١٤١٦هـ بأطروحته: "**قواعد التفسير: جمعًا ودراسة**" (مطبوعة).
- من أعماله المنشورة: تحقيق كتاب "**العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير**"، "**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**"، "**فقه الرد على المخالف**"،

- البريد الشبكي: khaled2224@gmail.com

الملخص

التدبر قضية نسبية يتفاوت الناس فيها، بل تتفاوت لدى الشخص الواحد في أحواله المختلفة نظرًا للتفاوت الحاصل في مقدماتها.

وهو موقوف على تحقق شروطه وانتفاء موانعه؛ إذ لابد لتحصيله من وجود المحل القابل - وهو القلب الحي - إضافة إلى العمل الذي يصدر من المكلف (القراءة أو الاستماع مع حضور القلب)، مع قدر من الفهم للكلام المقروء أو المسموع.

فيكون متهيئًا للقراءة بملاحظة الوقت والحال المناسبين للقراءة، مع تفريغ النفس من الشواغل المُشَوِّشة للفكر، وكذا اختيار ما هو أدعى إلى تدبره من صفة القراءة، مع الترتيل والترسُّل، والوقوف عند الآيات التي يتحرك قلبه عند تلاوتها، مُستحضرًا عظمة المتكلم بهذا القرآن، وأنه خاطبنا به من أجل أن نمتثل، فهو كتاب هداية، ومنهج حياة، يتنزل على الواقع، ويعالج الأفراد والأمم، فالواجب أن نُقبل عليه برغبة وصدق، وأن نُوليه أهمية كبرى، ونصرف له أشرف الأوقات تلاوة وتدبُّرًا وعملاً، وأن نتخلى عن كل المُعوِّقات التي تحُول دون تدبُّره، من الذنوب والمعاصي، والاشتغال بالفضول بأنواعه، أو ما قد يُوجد من التصورات والمفاهيم القاصرة التي لا تتوجه معها الهمة للتدبر، إلى غير ذلك من المُعَوِّقات المتنوعة. والله أعلم.

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فلا يخفى أن التدبر قضية نسبية يتفاوت الناس فيها، بل تتفاوت لدى الشخص الواحد في أحواله المختلفة؛ وذلك للتفاوت الحاصل في مقدماتها.

وهذا أصل ينبغي استحضاره عند الكلام على هذا المعنى الشريف.

وفي هذا البحث نُحاول أن نُجلِّي ونُبين الشروط اللازمة لتحصيل التدبر لكتاب الله تعالى، وما يَحْتَف بها من الأسباب المُعِيْنَة على ذلك، إضافة إلى الكلام على أضداد ذلك من مُعَوِّقاته وموانعه، فنسأل الله تعالى التسديد والتيسير إنه بَرٌّ رحيم(١).

(١) أصل هذا البحث كان ورقة قدمها الباحث في الملتقى الثاني للتدبر المنعقد في مدينة الرياض عام (١٤٣١هـ). بعد ذلك تم التعديل عليها والزيادة والنقص.

وكانت قبلها ورقة أُخرى بعنوان (التدبر: مفهومه وأركانه وأنواعه). تم تقديمها في الملتقى الأول للتدبر المنعقد في مدينة الرياض عام (١٤٣٠هـ). وفي هذه الورقة ذكرت أصل معنى التدبر في اللغة، كما ذكرت معناه العام في الاصطلاح، ثم بينت معنى تدبر القرآن الكريم على وجه الخصوص، إلى غير ذلك من القضايا التي تناولتها الورقة الأولى.

ولا بأس هنا أن أُشير إلى معنى التدبر على سبيل الإيجاز، فأقول:

التدبر لغة: أصل هذه المادة (د ب ر) يدل على آخر الشيء خلفه.

وذلك يرجع على معنى التأمل والتفكر في أدبار الأمور وعواقبها. أي: فيما لا يظهر منها للمتأمل بادئ ذي بدء.

وهذا قريب من تعريف التدبر بالمعنى العام عند من عَرَّفَه بالتفكر في عاقبة الشيء وما يَؤُول إليه أمره. أو أنه النظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء.

وأما تدبر القرآن : فهو النظر إلى ما وراء الألفاظ من المعاني والعِبَر والمقاصد، الأمر الذي يُثمر العلوم النافعة والأعمال الزاكية.

توطئة

ما يتوقَّف عليه التدبر إجمالاً:

لا بد - لتحصيل التدبر- من تحقق الشروط وانتفاء الموانع؛ فعندئذ يوجد السبب التام الذي يُنَمِّي التدبر بإذن الله تعالى.

الشروط الأساسية للتدبر (إجمالاً):

لسنا بحاجة في هذا المقام للحديث عن مُتَعلَّق التدبر - وهو القرآن الكريم- من جهة ما حواه من الهدايات التي تفوت الحصر ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] ، ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الإسراء: ٨٩] ، أو من جهة قوة تأثيره في النفوس ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١] . ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١] . ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣] .

وإنما المقصود بيان ما يتصل بنا - معاشر البشر- من الأوصاف التي تُطْلَب كشرط يتوقف عليه حصول التدبر. وذلك بحسب النظر الكُلِّي ينحصر في ثلاثة أمور:

الأول : وجود المَحَل القابل (القلب الحي).

الثاني : العمل الذي يصدر من المكلف (القراءة أو الاستماع مع حضور القلب).

الثالث : قدر من الفهم للكلام المقروء أو المسموع.

وهذه الأمور الثلاثة يحصل فيها التفاوت كما لا يخفى، ولكل واحد منها جملة

من الأسباب المُعِيْنَة التي يقوى باستجماعها أو يضعف بتخلفها وقد ينعدم.

وقد جَمَعَت هذه الشروط آية في كتاب الله تعالى، وهي قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧]. حيث صَرَّحَت بالشرطين الأولين، وأما الثالث فهي دالة عليه لزومًا؛ وذلك أن إلقاء السمع لا بد أن يكون معه الكلام مفهومًا لدى السامع، وإلا فإن الإصغاء للكلام الذي لا يفهمه أصلًا – كالأعجمي – لا يحصل به المقصود(١).

(١) وقد جمعت كلامًا مفيدًا لشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى في هذه الآية، وعقبته بأقوال المفسرين في هذه الآية الكريمة، وجعلته في ملحق خاص بآخر البحث.

ذِكْر حاصل أقوال المفسرين في الآية

قوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

فسره الأكثر بالعقل، وبه قال ابن عباس[١]، ومجاهد[٢]، وابن زيد[٣]، والفراء[٤]، وابن جرير[٥]، والواحدي[٦]، وابن عطية[٧]، والقرطبي[٨]، والشوكاني[٩]، وابن عاشور[١٠].

وفسره بعضهم بالقلب الحي كما قال قتادة[١١]، ومقاتل بن سليمان[١٢]، أو الواعي[١٣]، أو السليم[١٤] الذي يعقل به ويفهم ويتفكر في حقائقه.

ولا منافاة بين هذه الأقوال؛ فإن المقصود بالقلب ما يحصل به العقل والوعي وحُسْن الإدراك، وذلك من أوصاف القلب الحي السليم؛ ولذا عبر عنه ابن كثير رحمه الله بقوله: أي: «لُبّ يعي به» ا.هـ[١٥].

---

(١) انظر: معالم التنزيل (٤/ ٢٢٢)، لباب التأويل (٤/ ١٩١).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤٥٩)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٤٠٩).

(٣) انظر: جامع البيان (٢١/ ٤٦٢).

(٤) معاني القرآن (٣/ ٨٠).

(٥) جامع البيان (٢١/ ٤٦٢-٤٦٣).

(٦) الوجيز (٢/ ١٠٢٥).

(٧) المحرر الوجيز (٨/ ٥٥).

(٨) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤٥٩).

(٩) فتح القدير (٥/ ١٠٦).

(١٠) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢٤).

(١١) جامع البيان (٢١/ ٤٦٢).

(١٢) تفسير مقاتل (٣/ ٢٧٣).

(١٣) الكشاف (٤/ ١١)، مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٨٢)، أنوار التنزيل (٥/ ٩٤)، غرائب القرآن (٦/ ١٧٩)، التسهيل (٤/ ٦٦)، البحر المحيط (٨/ ١٢٨)، روح المعاني (٢٦/ ١٩١).

(١٤) إرشاد العقل السليم (٥/ ١٩٤).

(١٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٤٠٩).

وذلك قلب المؤمن كما قال ابن أبي زمنين[(١)].

وقال ابن عطية رحمه الله بعد أن فسره بالعقل: «والمعنى: لمن كان له قلب واع ينتفع به»[(٢)].

فائدة:

قد يُفهم من التنكير معنى الكمال، أي: القلب الكامل في الحياة والوعي والإدراك.

قال السعدي رحمه الله: «أي: قلب عظيم حي ذكي زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله تَذَكَّرَ بها وانتفع فارتفع» ا.هـ[(٣)].

ولا ريب أن الاعتبار والتذكر والتدبر لا يتوقف على ذلك، ولكن يحصل منه لكل أحد بحسبه؛ ولهذا فسَّره بعضهم بأن ذلك حاصل لمن له قلب ما ولو كان غير كامل، «فكأنه تعالى قال: إن في ذلك لذكرى لمن يصح أن يقال (له قلب). وحينئذ فمن لا يتذكر لا قلب له أصلًا»[(٤)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «هذا مع أن الناس متباينون في نفس عقلهم الأشياء من بين كامل وناقص، وفيما يعقلونه من بين قليل وكثير وجليل ودقيق وغير ذلك...»[(٥)].

«فصاحب العلم في حقيقَة الأمر هو القَلب، وإِنَّما سائر الأَعضاء حجبة له توصل إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه، حتى إن من فَقَد شيئا من هذه

(١) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/ ٢٧٨).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٥٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٧.

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٨٢). وانظر: إرشاد العقل السليم (٥/ ١٩٤)، محاسن التأويل (١٥/ ٥٥١٥).

(٥) مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٩).

الأعضاء فإنه يفقد بفقده من العلم ما كَان هو الواسطة فيه... وكَذلك من نظر إلى الأشياء بغير قلب، أو استمع إلى كلمات أهل العلم بغير قَلب، فإنه لا يعقل شيئا، فمدار الأمر على القَلب، وعند هذا تستبين الحكمة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، حتى لم يذكر هنا العين كما في الآيات السوابق، فإن سياق الكَلام هنا في أمور غائبة وحكمة معقولة من عواقب الأمور لا مجال لنظر العين فيها، ومثله قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وتتبين حقيقَة الأمر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]»(١).

قوله : ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ [ق: ٣٧] (٢).

والمراد به الإصغاء، كما قال ابن جرير(٣) وغيره(٤). والمعنى: «صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة، وأثبته في سماعها، فذلك إلقاء له عليها»(٥).

قال ابن كثير رحمه الله : «أي: استمع الكلام فوعاه، وتعَقَّله بقلبه، وتَفَهَّمه بلُبِّه» ا.هـ(٦).

والتعبير بالإلقاء «مستعار لشدة الإصغاء للقرآن...كأن أسماعهم طُرِحت في ذلك فلا يشغلها شيء آخر تسمعه»(٧).

---

(١) السابق (٩/ ٣١٠-٣١١).

(٢) انظر: في الوجيز(٢/ ١٠٢٥)، معالم التنزيل (٤/ ٢٢٢)، الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤٥٩)، لباب التأويل (٤/ ١٩١)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٤٠٩)، إرشاد العقل السليم (٥/ ١٩٤)، فتح القدير(٥/ ١٠٦)، روح المعاني (٢٦/ ١٩١)، تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٧.

(٣) جامع البيان (١٩/ ٤٦٣).

(٤) الكشاف (٤/ ١١)، أنوار التنزيل (٥/ ٩٤)، غرائب القرآن (٦/ ١٧٩)، البحر المحيط (٨/ ٩٨).

(٥) المحرر الوجيز (٨/ ٥٥).

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٤٠٩).

(٧) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢٤).

«أي: إلقاء عظيمًا بغاية إصغائه حتى كأنه يرمي بشيء ثقيل من علو إلى سفل. (السمع) أي: الكامل الذي قد جرَّده عن الشواغل من الحظوظ وغيرها...»[(١)].

وفي التفسير الكبير: «لأن من لا يسمع فكأنه حفظ سمعه وأمسكه، فإذا أرسله حصل الاستماع». ا.هـ[(٢)].

قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

أي: شاهد القلب، حاضر الذهن بكليته، ليس بغافل، ولا ساه، ولا يحَدِّث نفسه بغيره؛ لأن من لا يفهم في حكم الغائب. هكذا فسره عامة أهل العلم سَلَفًا وخَلَفًا[(٣)]. وقيل غير ذلك[(٤)].

ثم إن بناء المبالغة دال على أنه في غاية ما يكون من تصويب الفكر، وجمع الخاطر، فلا يغيب عنه شيء مما تُلي عليه وأُلقي إليه[(٥)].

وظاهر كلام أكثر أهل العلم أن هذه الأوصاف جميعًا لموصوف واحد له قلب حي، مع إصغاء السمع وحضور القلب مع ما يسمع.

ويحتمل أن يكون ذلك لصنفين من الناس:

الأول: صاحب القلب الحي الوقَّاد الذي يستخرج المعاني والعِبَر بتدبُّره وفِكْرِه.

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٣٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٨٢).

(٣) انظر في ذلك: تفسير مقاتل (٣/ ٢٧٣)، جامع البيان (٢١/ ٤٦٣)، معاني القرآن للزجاج(٥/ ٤٩)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٢/ ٢٧٨)، الواحدي في الوجيز (٢/ ١٠٢٥)، معالم التنزيل (٤/ ٢٢٢)، الكشاف (٤/ ١١) ، المحرر الوجيز (٨/ ٥٦)، نظم الدرر(١٨/ ٤٣٦)، الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤٥٩)، أنوار التنزيل (٥/ ٢٣٢)، لباب التأويل (٤/ ١٩١)، التسهيل (٤/ ٦٦)، البحر المحيط (٨/ ٩٨)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٤٠٩)، الدر المنثور(١٣/ ٦٥٣-٦٥٤)، إرشاد العقل السليم (٥/ ١٩٤)، فتح القدير(٥/ ١٠٦)، روح المعاني (٢٦/ ١٩١)، تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٧.

(٤) انظر: التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢٤).

(٥) انظر: نظم الدرر (١٨/ ٤٣٦).

الثاني: من كان دونه، لكنه أصغى بسمعه وأحضر قلبه حال الاستماع؛ فإنه ينتفع بذلك ويتذكر ويعتبر؛ فالتذكر حاصل للكامل والناقص، وإنما يحول دونه الإعراض.

ولعل هذا القول أقرب إلى ظاهر الآية، والله تعالى أعلم[(١)].

والحاصل: أنه يحصل من التذكر قدر ما يتحقق من هذه الأوصاف ؛ لأن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه.

تنبيه: ليس بخافٍ على طالب العلم أن الذكرى المشار إليها في الآية لا تحصل إلا بالتدبر و التفكر، فهي نتيجة لذلك.

---

(١) وممن ذهب إلى هذا: البقاعي في نظم الدرر (١٨/ ٤٣٦-٤٣٧)، غرائب القرآن (٦/ ١٨٠)، تيسير الكريم الرحمن (ص٨٠٧).

وللاستزادة في محمل (أو) راجع: مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٨٢-١٨٣)، إرشاد العقل السليم (٥/ ١٩٤)، روح المعاني (٢٦/ ١٩٢)، التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢٤).

بيان شروط التدبر وما يتفرع عنها تفصيلاً

الشرط الأول : وجود المحل القابل:

وهو القلب الحي، وذلك أن القلب إذا كان زكيًّا يَقِظًا أثمر ذلك فيه كل وصف ومعنى شريف؛ لأن «القلب إذا كان رقيقاً ليِّنا كَان قبوله للعلم سهلًا يسيرًا، ورسخ العلم فيه وثبت وأثَّر، وإن كان قاسيًا غليظًا كان قبوله للعلم صعبًا عسيرًا.

ولا بدَّ مع ذلك أن يكون زكيًّا صافيًا سليمًا، حتى يَزْكُو فيه العلم ويثْمر ثمرًا طيبًا، وإلا فلو قَبِلَ العلم وكان فيه كدرٌ وخَبَثٌ أفسد ذلك العلم، وكان كالدغل في الزرع إن لم يمنع الحب من أن ينبت منعه من أن يَزْكُو ويطيب، وهذا بيّن لأولي الأبصار»(١).

ومن هنا كان الصحابة رضي الله عنهم يتعلمون الإيمان قبل القرآن.

فعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان حَزَاوِرَة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا»(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم، فنتعلم حلالها وحرامها، وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، كما تَعَلَّمُون أنتم اليوم القرآن، ثم لقد رأيت اليوم رجالًا يُؤتَى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ٣١٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٦١)، والطبراني في الكبير (١٦٧٨)، والبيهقي في السنن (٣/ ١٢٠)، الجامع لشعب الإيمان (٥٠) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٥٢).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٥)، والبيهقي في السنن (٣/ ١٢٠)، والطحاوي في مشكل الآثار (١٤٥٣) ، وابن نصر في قيام الليل (المختصر ٧٨).

وعن حذيفة رضي الله عنه: «إنَّا قوم أُوتينا الإيمان قبل أن نُؤتَى القرآن، وإنكم قوم أُوتيتم القرآن قبل أن تُؤتوا الإيمان»(١).

وقد جاء عن عثمان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله عز وجل»(٢).

وعلى قدر حياة القلب يكون تأثره وتدبره وتذكره، فتارة يقوى، وتارة يضعف، وقد ينعدم ويتلاشى، كما يدل على ذلك ما جاء في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى من الطبع على القلوب، والخَتْمِ عليها، وإزاغتها، فصاحب هذا القلب الأغلف أو المنكوس لا يحصل له شيء من التدبر والاعتبار والتفكر والانتفاع بما يقرأ أو يسمع من آيات الله تعالى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما عند قوله تعالى: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾ [ق: ٣٧]: «كان المنافقون يجلسون عند رسول الله ﷺ ثم يخرجون، فيقولون: ماذا قال آنفًا؟! ليس معهم قلوب»(٣). يشير إلى قوله تعالى عن المنافقين: ﴿ **وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ** ﴾ [محمد: ١٦].

سؤال وجوابه:

قد يسأل طالب العلم فيقول: أليست الآيات الأربع في الحث على التدبُّرِ: واحدة منها عامة – آية ص: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [٢٩] – وأخرى – آية المؤمنون: ﴿ **أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ** ﴾ [٦٨] – في سياق الكلام على الكافرين، والباقي – آية النساء :

---

(١) رواه البيهقي في السنن (٣/ ١٢٠).

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد (ص١٢٨)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٠٠).

(٣) رواه ابن مردويه، كما في الدر المنثور (١٣/ ٦٥٣).

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [٨٢]، ومحمد: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [٢٤] - في سياق الحديث عن المنافقين، وهؤلاء ليسوا من أصحاب القلوب الحية!! فما الجواب؟!

والجواب من وجهين:

الأول: أن الآيات الثلاث مُصدَّرة بالاستفهام الإنكاري ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ﴾، فهذه الآيات ينبغي أن تُفهم مع ضَمِّها إلى غيرها من الآيات التي تُخبِر عن الطبع والخَتْمِ والرَّانِ، وما نَتَجَ عن ذلك من العمى والصمم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٦، ٧]. ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، كما أخبر عن قيلهم: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥]، وقولهم: ﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٦]. إلى غير ذلك من الآيات.

وذلك جزاءً وفاقًا كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠، ١١١]. فجازاهم بتكذيبهم الأول.

والله يقول مُخاطبًا أهل الإيمان: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وهكذا -أيضًا- الآيات التي تخبر أن القرآن والإنذار إنما ينتفع بهما المؤمنون والمتقون، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١]، وقوله: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾[الأنعام: ٣٦] أي: سماع استجابة وقبول.

ومثل ذلك الآيات التي تخبر أن الله لا يهدي القوم الكافرين، والفاسقين، والظالمين، أي: من سبق في علمه الأزلي شقاوتهم، وبعض العلماء يُعبِّر عن المعنى بقوله: يعني المُصِرِّين على كفرهم وظلمهم وعنادهم.

ولهذا قال الله تعالى في الآية العامة في التدبر: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، ثم خص التذكر ببعضهم فقال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

والكلام في هذا يطول، وما ذكرته يرشد إلى غيره، والله تعالى أعلم(١).

الثاني: أشرنا سابقًا إلى التفاوت الحاصل بين القلوب من ناحية حياتها ومرضها وموتها، وقوتها وضعفها، فالقلب قد يكون مريضًا أو ضعيفًا، فإذا أصغى صاحبه بسمعه مع حضور القلب حال الاستماع أو القراءة فإنه ينتفع ويعتبر، ما لم يصل إلى حال الطمس والختم على القلب؛ ولهذا فإن من الكفار من يتأثر بسماع القرآن، وقد يكون ذلك سبب دخوله في الإسلام، كما وقع ويقع في القديم والحديث. وقد سمع جبير بن مطعم رضي الله عنه قبل إسلامه النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ قوله: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦

(١) وانظر ما سيأتي في موانع التدبر في الكلام على ما يتصل بالقلب.

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] قال: كاد قلبي أن يطير[١].

قال الخطابي: «كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها، ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه...» ا.هـ[٢].

الشرط الثاني: العمل الذي يصدر من المكلف (الاستماع، أو القراءة مع حضور القلب):

وإليك بيان هذا الشرط وما يتعلق به:

أما الاستماع: فيكفي في ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

يقول ابن سعدي رحمه الله: «هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يُتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث، أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له فهو أن يُلقي سمعه ويُحضِر قلبه، ويتدبر ما يستمع، فإن من لازَم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجددًا، وهدًى متزايدًا وبصيرةً في دينه؛ ولهذا رَتَّبَ الله حصول الرحمة عليها، فدل ذلك على أن من تُلي عليه الكتاب فلم يستمع له ويُنْصِت أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير» ا.هـ[٣].

وقال القرطبي رحمه الله: «حُسْن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨]. وذم على خلاف هذا الوصف فقال: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ

(١) رواه البخاري (٤٨٥٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٤٧٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٣١٤).

إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧]. فمدح المُنْصِت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأَمَر عباده بذلك أدبًا لهم، فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقال ها هنا: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: ١٣]؛ لأنه بذلك ينال الفهم عن الله تعالى.

وعن وهب بن مُنَبِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: من أدب الاستماع سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل؛ وذلك هو الاستماع كما يُحِب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يُحَدِّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم.

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر[١]. فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يُحِب الله أفهمه كما يُحِب، وجعل له في قلبه نورًا» ا.هـ[٢].

وقال أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن الله وعد لمن استمع كلامه، فأحسن الأدب عند استماعه بالاعتبار الجميل، ولزوم الواجب لاتباعه، والعمل به يبشره منه بكل خير، ووعده على ذلك أفضل الثواب» ا.هـ[٣].

ويقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله ﷺ بعقله، وتَدَبَّره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة، والبركة، والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام، لا مَنظومِه و لا منثورِه»[٤].

---

(١) رواه البيهقي في الجامع لشعب الإيمان (١٦٥٨)، وروى البيهقي أيضًا في الجامع لشعب الإيمان (١٦٥٧) هذا الكلام بنحوه عن محمد بن النضر الحارثي.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢٦).

(٣) أخلاق أهل القرآن للآجري (ص٧).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٤٩).

وقال تلميذه ابن القيم رحمه الله: «سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفهمًا، وتدبرًا، وإجابةً... فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحُجَّة، وتبصرةً لِعِبْرَة، وتذكرةً لمعرفة، وفكرةً في آية، ودلالةً على رشد...، وحياةً لقلب، وغذاءً ودواءً وشفاءً، وعصمةً ونجاة، وكشف شبهة»(١).

وقال ابن عاشور رحمه الله: «فالاستماع والإنصات المأمور بهما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الأدلة على صدق رسول الله ﷺ المفضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ، واستدعاء النظر، والعمل بما فيه»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قال لي النبي ﷺ: ((**اقرأ عليَّ القرآن**)) قلت: أأقرأ عليك وعليك أُنزل؟! قال: ((**إني أُحب أن أسمعه من غيري**))، قال: فافتتحت سورة النساء، فلما بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: ((**حسبك**))، فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان»(٣).

قال ابن بطال رحمه الله: «يحتمل أن يكون الرسول ﷺ أَحَبَّ أن يسمعه من غيره ليكون عَرْضُ القرآن سُنة يُحْتَذى بها، كما يحتمل أن يكون لكي يتدبَّرَه ويتفهمه؛ وذلك لأن المستمع أقوى على التدبر، ونفسه أخلى وأنشط من نفس القارئ، لاشتغاله بالقراءة وأحكامها»(٤).

قال ابن تيمية رحمه الله: «هذا سماع سلف الأمة، وأكابر مشايخها وأئمتها كالصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المشايخ كإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، ويوسف بن أسباط، وحذيفة

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٨٤-٤٨٥).
(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٣٦).
(٣) رواه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠).
(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٢٧٧-٢٧٨).

المرعشي، وأمثال هؤلاء. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى رضي الله عنه: ذَكِّرْنا ربنا، فيقرأ وهم يسمعون ويبكون[١]، وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم أن يقرأ القرآن، والباقي يستمعون» ا.هـ[٢].

وقد قص الله تعالى علينا خبر الجن وما جرى لهم من ذلك، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. وذم الكافرين فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. لأنهم يعلمون أن ذلك الصنيع يحول بينهم وبين القرآن فلا يتأثرون به.

ويحسن التنبيه هنا لأمرين:

الأول: أن ينظر المرء فيما يكون أدْعَى للتدبر بالنسبة إليه: القراءة أو الاستماع؛ فإذا كان الاستماع فليجعل لنفسه منه حظًّا صالحًا.

الثاني: من المعلوم أن الإنسان قد يتأثر ببعض التلاوات المسموعة أكثر من غيرها، وينجذب قلبه إليها، فيحسن أن يكون سماعه لمن يكون بهذه المثابة، لاسيما إذا كانت القراءة مسجلة في صلاة؛ فإن ذلك مظنة التأثر والخشوع، وهو أمر مُشَاهَد.

وأما القراءة: فإنها الطريق إلى التدبر كالاستماع، فإذا راعى القارئ ما ينبغي له عندها فإن ذلك يكون أدعى للتدبر والانتفاع بها، فمن تلك الأمور:

١- التهيؤ لها: وذلك من وجوه عدة، منها:

أ) **اختيار الوقت المناسب**، ولا شك أن أفضله ما كان ليلًا، وأفضل ذلك ما كان بعد نوم لمن وُفِّق له، حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾

(١) رواه الدارمي (٣٥٣٦)، وأبو عبيد في الفضائل (ص١٦٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٨٠)، رسالة التحفة العراقية.

[المزمل: ٦] ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ : «هو أجدر أن يفقه القرآن»(١).

ويقول الحافظ ابن حجر رحمه الله عن مُدَارَسَة جبريل لرسول الله ﷺ في كل ليلة من رمضان: «المقصود من التلاوة الحضور والفهم؛ لأن الليل مظنة ذلك لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية» ا.هـ(٢).

وقال النووي رحمه الله: «ينبغي للمرء أن يكون اعتناؤه بقراءة القرآن في الليل أكثر، وفي صلاة الليل أكثر، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة، وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والمُلْهِيَات والتصرف في الحاجات، وأصون عن الرياء وغيره من المُحْبِطَات، مع ما جاء به الشرع من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء بالرسول كان ليلًا» ا.هـ(٣).

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما : «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها بالنهار»(٤).

وقال السري السقطي: «رأيت الفوائد تَرِد في ظلام الليل»(٥).

ب) اختيار الحال الأصلح له: وأنفع ذلك ما كان في حال قيام الليل، يقول الشنقيطي رحمه الله : «لا يثبت القرآن في الصدر، ولا يسهل حفظه، وييسر فهمه إلا القيام به في جوف الليل» ا.هـ(٦).

---

(١) رواه أبو داود (١٣٠٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٧٤).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن ص٥٢-٥٣.

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن ص٤٥-٤٦.

(٥) حلية الأولياء (١٠/ ١١٩).

(٦) ذكره عنه الشيخ عطية سالم رحمه الله . انظر: مفاتيح تدبر القرآن، ص ٥٠.

وهكذا القراءة إذا كانت في صلاة فهي أفضل، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله : «الصلاة أفضل من القراءة في غير الصلاة ... ولكن من حصل له نشاط وتدبر وفهم للقراءة دون الصلاة؛ فالأفضل في حقه ما كان أنفع له»[(١)].

«كما أن من الناس من يجتمع قلبه في قراءة القرآن وفهمه وتدبره ما لا يجتمع في الصلاة، بل يكون في الصلاة بخلاف ذلك، وليس كل ما كان أفضل يشرع لكل أحد، بل كل واحد يشرع له أن يفعل ما هو أفضل له»[(٢)].

كما أن القراءة في حال الطهارة أفضل كما لا يخفى.

ج) تفريغ النفس من الشواغل المُشَوِّشَة للفكر والقلب.

د) الاستعاذة قبلها: وقد أورد لذلك الحافظ ابن القيم رحمه الله ثماني فوائد:

منها : «أن القرآن شفاء ما في الصدور، يُذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أثَّره فيها الشيطان، فأُمر أن يطرد مادة الداء، ويخلي منه القلب، ليصادف الدواء محلًّا خاليًا، فيمكن منه، ويؤثر فيه...فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب، وقد خلا من مُزاحِم ومُضَاد له، فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان يحرق النبات أولًا فأولًا، فكلما أحس بنبات الخير من القلب، سعى في إفساده وإحراقه، فأُمر- أي المؤمن- أن يستعيذ بالله عز وجل منه؛ لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله: أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها، وحفظها وثباتها...

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٦٢).

(٢) السابق (٢٣/ ٦٠).

ومنها : أن الشيطان يُجْلِب على القارئ بخيله ورَجِلِه، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يَحُول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأُمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه...

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أُمنيته[1]، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته... فإذا كان هذا فِعْلُه مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم؛ ولهذا يُغلِّط القارئ تارةً، ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يُشوش عليه فهمه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا، أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور الاستعاذة بالله تعالى منه.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير، أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه... فهو بالرصد، ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يُحارِب عدوه الذي يقطع عليه الطريق، ويستعيذ بالله تعالى منه أولًا ثم يأخذ في السير...»[2].

٢- ما يُطلب مراعاته أثناء القراءة:

أ) **أن ينظر فيما هو أدعى إلى تدبره:** من القراءة عن ظهر قلب أو من المصحف؛ إذ إن الناس في ذلك يتفاوتون، فيختار كل واحد ما هو أقرب لتدبره وحضور قلبه، فإنِ اسْتَوَيَا فالقراءة في المصحف تَفْضُل على القراءة عن ظهر قلب.

وهذا القول أعدل الأقوال، واستحسنه النووي رحمه الله وقال: «والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل» ا.هـ[3].

---

(١) وذلك في سورة الحج آية (٥٢).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٨١-١٨٤).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن ص٧٨، وانظر: الأذكار له ص١٦١، وفتح الباري (٨/ ٧٠٨)، الإتقان =

ب) **أن يختار الأصلح لقلبه من الجهر والإسرار:** وقد ثبت عن النبي ﷺ ما يدل على فضل الجهر بالتلاوة، كحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ((**ليس مِنَّا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن يجهر به**))(١).

وعنه أيضًا رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت أن يجهر بالقرآن**))(٢). كما ثبت ذلك من فعله ﷺ وفعل أصحابه في عدد من الأحاديث والآثار الصحيحة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما لرجل ذكر له أنه سريع القراءة: «إن كنت فاعلًا فاقرأ قراءة تسمعها أذنك، ويعيها قلبك»(٣).

وعن ابن أبي ليلى رحمه الله قال: «إذا قرأت فأسْمِع أذنيك، فإن القلب عدل بين اللسان والأذن»(٤).

وذلك أقرب إلى التدبر في الأصل، لا سيما إذا كان خاليًا، أو لم يحصل التأذي بجهره، وقد جاء في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعًا: ((**الجَاهِرُ بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسِرّ بالقرآن كالمسر بالصدقة**))(٥).

يقول النووي رحمه الله: «جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة، وآثار بفضيلة الإسرار، قال العلماء: والجمع بينهما أن الإسرار أبعد من الرياء، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل، بشرط أن لا يؤذي غيره من

= (١/ ٣٠٤) ، فيض القدير (١/ ٥٦١).

(١) رواه البخاري (٧٥٢٧).

(٢) رواه البخاري (٧٥٤٤)، ومسلم (٧٩٢/ ٢٣٣).

(٣) رواه سعيد بن منصور في السنن (١٦١ قسم التفسير).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٦٨٧).

(٥) رواه أحمد (٤/ ١٥١)، والترمذي (٢٩١٩)، وأبو داود (١٣٣٣)، والنسائي (٢٥٦١)، وابن حبان (٧٣٤) ، صححه ابن حبان وغيره، وحسنه الترمذي وابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٥/ ٧٠١).

مُصَلٍّ أو نائم أو غيرهما. ودليل فضيلة الجهر أن العمل فيه أكثر؛ ولأنه يتعدى نفعه إلى غيره؛ ولأنه يوقظ القلب ويجمع همَّه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه». إلى أن قال: «فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل» ا.هـ[(١)].

لكن من الناس من يكون تدبُّره حال الإسرار أعظم فيُقَدَّم، والله أعلم.

ج) الترتيل والتَّرَسُّل في القراءة:

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. قال في الكشاف: «ترتيل القراءة: التأني والتمَهُّل، وتبيين الحروف والحركات، تشبيهًا بالثغر المُرَتَّل، وهو المشبه بنَوْر الأقحوان»[(٢)].

وقال القرطبي: «أي لا تَعْجَل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مَهَل وبيان مع تدبر المعاني.

وقال الضحاك رحمه الله: اقرأه حرفًا حرفًا.

وقال مجاهد رحمه الله: أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه.

والترتيل: التنضيد والتنسيق، وحُسْن النظام، ومنه ثغر رَتِل ورَتَل...إذا كان حسن التنضيد..

وسمع علقمة رجلًا يقرأ قراءة حسنة فقال: لقد رَتَّل القرآن فداه أبي وأمي[(٣)].

وقال أبو بكر بن طاهر رحمه الله: تَدَبَّر في لطائف خطابه، وطَالِب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسِرَّك بالإقبال عليه» ا.هـ[(٤)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «أي: اقرأه على تمهُّل فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره» ا.هـ[(٥)].

---

(١) الأذكار (ص١٦٢)، وانظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٨١)، والمجموع (٢/ ١٩١).

(٢) الكشاف (٤/ ١٧٥)، وبنحوه في الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٢). (بتصرف يسير).

(٣) رواه البيهقي في الجامع لشعب الإيمان (١٩٧٣) بنحوه.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢١/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٢٥٠).

ويقول ابن مفلح رحمه الله: «قال القاضي: أقل الترتيل ترك العجلة في القرآن عن الإبانة... وأكمله أن يُرتِّل القراءة ويتوقف فيها، ... والتَّفَهُم فيه والاعتبار فيه مع قلة القراءة، فهو أفضل من إدراجه بغير فهم. قال الإمام أحمد رحمه الله: يُحسِّن القارئ صوته بالقرآن ويقرؤه بحزن وتدبُّر، وهو معنى قوله ﷺ: ((**ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتَغَنَّى بالقرآن يجْهَرُ بِهِ**)) »[1].

وقال ابن الجوزي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦]: «على تُؤدة وتَرَسُّل ليتدبروا معناه» ا.هـ[2].

وهكذا كانت صفة قراءة النبي ﷺ كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها»[3].

وعن أنس رضي الله عنه أنه سُئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانت مدًّا، يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم»[4].

وهكذا حديث حذيفة[5]، وعوف بن مالك[6] رضي الله عنهما في وصف قراءته ﷺ في صلاة الليل.

وقال ﷺ: ((**لا يفقه – وفي رواية: لم يفقه – من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**))[7].

---

(١) الآداب الشرعية (٢/ ٢٩٧)، والحديث سبق تخريجه.

(٢) زاد المسير (٥/ ٩٧).

(٣) رواه مسلم (٧٣٣).

(٤) رواه البخاري (٥٠٤٦).

(٥) حديث حذيفة – رضي الله عنه– رواه مسلم (٧٧٢).

(٦) رواه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١٠٤٨)، وأحمد (٦/ ٢٤)، وصححه النووي في الأذكار(ص٩٠)، وابن حجر في نتائج الأفكار (٣/ ٧٤-٧٥)، والألباني في صحيح أبي داود (٨١٧).

(٧) رواه الترمذي (٢٩٤٩)، وأبو داود (١٣٩٠-١٣٩٤)، وابن ماجه (١٣٤٧)، وأحمد (٢/ ١٦٤-١٦٥)، وابن حبان (٧٥٨)، وصححه الترمذي وابن حبان والنووي في الأذكار (ص١٥٤).

وقد حَدَّث أبو جمرة قال: «قلت لابن عباس رضي الله عنهما: إني رجل سريع القراءة، وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأن أقرأ سورة واحدة أعجب إليَّ من أن أفعل ذلك الذي تفعل، فإن كنت فاعلًا ولا بد، فاقرأ قراءة تُسْمِعُها أُذنيك ويعيها قلبك»(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا تَهُذُّوا القرآن هَذَّ الشِّعْر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحَرِّكُوا به القلوب، ولا يكن همُّ أحدِكم آخر السورة»(٢).

وقال الحسن البصري رحمه الله: «يا ابن آدم! كيف يَرِقّ قلبك، وإنما هِمَّتُك في آخر السورة»(٣).

وفي الباب آثار عن السلف رضي الله عنهم في الإنكار على من أسرع في القراءة.

يقول النووي رحمه الله: «قال العلماء: والترتيل مستحب للتدبر وغيره...؛ لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرًا في القلب»(٤).

قال القرطبي رحمه الله: «الترتيل أفضل من الهذ؛ إذ لا يصح التدبر مع الهذ»(٥).

وقال ابن كثير رحمه الله: «المطلوب شرعًا إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع والانقياد والطاعة»(٦).

ومن هنا ذهب النووي رحمه الله إلى أن تحديد مدة لختم القرآن يختلف بحسب الأشخاص، فمن كان من أهل الفهم وتدقيق الفِكْر اسْتُحِب له أن يقتصر على

---

(١) رواه البيهقي في الجامع لشعب الإيمان (١٩٧١).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١٨٨٣)، والآجري في أخلاق حملة القرآن (ص٢)، وأورده البغوي في معالم التنزيل (٤/ ٤٠٧).

(٣) رواه أحمد في الزهد (ص٢٥٩).

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن ص٧٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٨٩).

(٦) فضائل القرآن (ص٦٤ ضمن المجلد الأول من تفسير ابن كثير).

القدر الذي لا يُخِل بالمقصود من التدبر واستخراج المعاني، وكذا من كان له شُغل بالعلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة يُستحب له أن يقتصر منه على القدر الذي لا يخل بما هو فيه، ومن لم يكن كذلك فالأولى له الاستكثار ما أمكنه من غير خروج إلى الملل، ولا يقرؤه هَذْرَمة[(١)].

وبناء على ذلك يَحْسُنُ أن يكون للمسلم قراءة يَتَدَبَّرُ فيها ولو قلَّت إن لم يجعل قراءته كلها لذلك.

فيكون له وِرْد للمراجعة أو الحفظ، وآخر للتدبر، فَإِنْ أَبَى فَوِرْد للحفظ أو المراجعة، وآخر للتلاوة والختم، وثالث للتدبر.

د. تكرار الآية أو الآيات أو السورة القصيرة:

فإذا أراد القارئ أن يَتَدَبَّر موضعًا من كتاب الله تعالى يجد فيه عِبْرة أو عِظَة لقلبه فإنه يُكرر تلاوته ويُردِّدُه حتى يحصل مقصوده، ولو اقتصر عليه في مجلسه أو ليلته بكاملها.

قال ابن القيم رحمه الله: «فإذا قرأه بِتَفَكُّرٍ حتى إذا مَرَّ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كرَّرَها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكُّر وتَفَهُّم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهُّمٍ، وأنفع للقلب، وأدْعَى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن» ا.هـ[(٢)].

قال في الإحياء: «وإن لم يحصل التدبر إلا بترديد الآية فليرددها» ا.هـ[(٣)].

وقد قال أبو ذر رضي الله عنه: «قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح، يرددها، والآية: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]»[(٤)].

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٥٠). وانظر: الأذكار (ص١٥٤).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٣).

(٣) الإحياء (٤/ ٥٠٥) (بتصرف يسير).

(٤) رواه النسائي (١٠٧١)، وابن ماجه (١٣٥٠)، وأحمد (٥/ ١٤٩)، والحاكم (١/ ٢٤١)، وابن خزيمة=

وهكذا كانت عادة السلف رضي الله عنهم[(١)].

عن عَبَّاد بن حمزة رحمه الله قال: «دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، فوقفت عندها، فجعلت تعيدها وتدعو، فطال علي ذلك فذهبت إلى السوق، فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو»[(٢)].

وقام تميم الداري رضي الله عنه بآية حتى أصبح، وهي قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١][(٣)] فلم يزل يكرِّرها ويبكي حتى أصبح وهو عند المقام. وكذلك قام بها الربيع بن خثيم[(٤)].

وردَّدَ الحسن البصري رحمه الله ليلة: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]. حتى أصبح، فقيل له في ذلك، فقال: إن فيها مُعْتَبرًا، ما نرفع طَرْفًا ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر[(٥)].

وعن سعيد بن جبير رحمه الله أنه ردد قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، بضعًا وعشرين مرة. وردد قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧١]. وروي عنه أنه أحرم بنافلة فاستفتح: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، فلم يزل فيها حتى نادى

=(١٢٠)،صححه الحاكم والذهبي وابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٤)وقال ابن خزيمة:«إن صح الخبر».

(١) انظر: الأذكار للنووي (ص١٦١)، مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٣-٥٥٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦٠٩٢م عوامة).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٩٤)، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ص١٨٢، والطبراني في الكبير (١٢٣٦، ١٢٣٧).

(٤) سيأتي قريبًا.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (٥٣).

منادي السَّحَر [(١)].

وعن الضحاك رحمه الله أنه رَدَّدَ قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: ١٦] [(٢)].

وعن عامر بن عبد القيس رحمه الله أنه قرأ في ليلة سورة المؤمن، فلما انتهى إلى قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ [غافر: ١٨]، فلم يزل يرددها حتى أصبح [(٣)]. ونُقل عنه أن قرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام: ٢٧]، فجعل يبكي ويرددها حتى أسحر [(٤)].

وقال محمد بن كعب رحمه الله: « لأن أقرأ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١]، و﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة: ١]، أرددهما وأتفكر فيهما أحب من أن أبيت أَهُذ القرآن» [(٥)].

وقال زائدة رحمه الله: «صليت مع أبي حنيفة في مسجده عشاء الآخرة، وخرج الناس، ولم يعلم أني في المسجد، وأردت أن أسأله مسألة من حيث لا يراني أحد، قال: فقام فقرأ، وقد افتتح الصلاة، حتى بلغ إلى هذه الآية ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧]، فأقمت في المسجد أنتظر فراغه، فلم يزل يرددها حتى أَذَّن المؤذن لصلاة الفجر» [(٦)].

وقال رجل لابن المبارك رحمه الله: «قرأت البارحة القرآن في ركعة، فقال: لكني أعرف رجلًا لم يزل البارحة يقرأ ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر: ١] إلى الصبح، ما قدر

---

(١) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (١٨٩).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٦٩.

(٣) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (١٨٧).

(٤) رواه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٣٥).

(٥) الزهد لابن المبارك، ص ٢٨٧، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١٤).

(٦) تاريخ بغداد (١٣/ ٣٥٧).

أن يجاوزها، يعني نفسه»[1].

عن عبد الرحمن بن عجلان - رحمه الله - قال: «بِتُّ عند الربيع بن خثيم ذات ليلة فقام يصلي، فمر بهذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، فمكث ليلته حتى أصبح، ما جاوز هذه الآية إلى غيرها، ببكاء شديد»[2].

بل جاء عن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها[3].

وقال بعضهم: لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد[4].

---

(١) رواه الدينوري في المجالسة (١٢٣٢) - ومن طريقة ابن عساكر في تاريخه (٣٢/ ٤٣٥)-.

(٢) الحلية (٢/ ١١٢).

(٣) الإحياء (٤/ ٥٠٧)، وعزاه الزبيدي في شرحه إلى قوت القلوب للمكي.

(٤) الإحياء (٤/ ٥٠٧).

ذِكْرُ جملة من الأمور المُعِينة على التدبر مما يكون مُشْتَرَكًا بين الاستماع والتلاوة

١- إدراك أهمية التدبر وفائدته:

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر»(١).

والحديث عن هذا المعنى يُذكر عادة في المقدمات، وليس هذا موضع تفصيله، فيُرجع إليه في مَظَانِّه، لكن المراد هنا التنبيه على أن من لا يدرك أهمية التدبر فإنه لن يلتفت إليه.

٢- استحضار عظمة المتكلم بالقرآن:

فإذا كان الإنسان يَتَمَعَّن كثيرًا حينما يقرأ خطاب من يُعظِّمه من البشر، ويقف مع كل حرف فيه، ويتأمل في مضامينه، فإن كلام الله تعالى أولى بذلك وأحق لدى أصحاب القلوب الحيَّة.

قال ابن قدامة رحمه الله: «وليعلم أن ما يقرؤه ليس كلام بشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه؛ فإن التدبر هو المقصود من القراءة» ا.هـ(٢).

٣- ما ينبغي أن تكون عليه تصوراتنا ونظرتنا للقرآن:

إن النظرة القاصرة، وفساد التصور تجاه القرآن الكريم يُقْعِدان صاحبهما عن تدبر كتاب الله تعالى، وطلب الهدى منه؛ وذلك حينما ينظر بعضهم إلى القرآن باعتبار أنه مجرد كتاب مقدس يُتلى لتحصيل الأُجور، وربما لمجرد تحصيل البركة فيضع المصحف في بيته أو مركبته، أو أنه ملجأ أرباب العِلَل والأدواء فَيَسْتَرْقُون به لكشف ما أَلَمَّ بهم، أو أنه إنما يقرأ - مجرد قراءة- في المآتم أو افتتاح بعض المناسبات،

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٣).

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٦٨، وانظر: الإحياء (٤/ ٥٠٧).

أو أنه نزل ليعالج بيئة مُتَخَلِّفة يعبد أهلها الأصنام فدعاهم إلى تركها وعبادة الله وحده دون ما سواه، فهو يعالج تلك الحقبة الغابرة، ولا تعلق له بالواقع المعاصر وتعقيداته!! إلى غير ذلك من التصورات الضيقة.

فمن كانت هذه نظرته إلى هذا الكتاب فلا يُظَن به أنه سَيُقْبِل عليه بتدبر وتفهم ليستخرج من كنوزه وهداياته؛ إذ الناس -كما قيل- أسرى لأفكارهم ومعتقداتهم.

والله تعالى قد أخبر عن هذا الكتاب بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وَاتْـلُ بِفَهْـمٍ كِتَـابَ اللهِ فِيـهِ أَتَـتْ ... كُلّ العُلُومِ تَدَبَّرْهُ تَـرَ الْعَجَبَا[(١)]

فينبغي النظر إليه باعتبار أنه كتاب هداية ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. يُحيي الله به موتى الأرواح ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

وإذا أردت أن تعرف عظمة هذا القرآن، وما يؤَثِّره ويعالجه في النفوس والمجتمعات فتأمل ما وصفه الله تعالى به في مواضع كثيرة، حيث وصفه بأنه كريم، وحكيم، وعظيم، ومجيد، ومبارك، وعزيز، ومُهيمن، وعلِيّ، وهدى، ورحمة، وشفاء، ونور، وذِكْر، وموعظة، وروح، وتفصيل كل شيء، وبصائر، وأنه حق، وبرهان، إلى غير ذلك من الأوصاف.

كما سماه بالفرقان؛ لأنه يفرق بين الهدى والضلال والحق والباطل، وبالقرآن (قيل: لأنه جمع ثمرة الكتب قبله).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٧١).

فالواجب أن يُقبل المسلم على كتاب ربه إقبالًا يليق بهذا القرآن العظيم، «ويعرف أنه سِيْق لهداية الخلق كلهم، عالِمِهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، ... فمن وُفِّق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبُّرِه وتَفَهُّمه، وكثرة التفكر في ألفاظه ومعانيه، ولوازمه وما تتضمنه... وما يدل عليه منطوقًا ومفهومًا، فإذا بَذَلَ وُسْعَه في ذلك فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أمورًا لا تدخل تحت كسبه»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «هو أعظم الكنوز، وطلسمه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه» ا.هـ[2].

فتَدَبَّر القرآن إن رُمْتَ الهُدَى فالعِلْمُ تحتَ تَدَبُّرِ القُرْآنِ[3]

٤- استحضار أنك المُخاطَب بهذا القرآن:

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾فأصغ لها سمعك، فإنه خير تُؤمر به، أو شر تُصرف عنه»[4].

وقال الحسن رحمه الله: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار»[5].

وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله: «من بلغه القرآن فكأنما كلَّمه الله»[6] وعقبه في الإحياء بقوله: «وإذا قَدَّر ذلك لم يتخذ قراءة القرآن عَمَلَه، بل يقرؤه كما

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٠).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٥٣).

(٣) الكافية الشافية (٧٣٦).

(٤) سنن سعيد بن منصور (التفسير)، (٥٠، ٨٤٨).

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٤٥-٤٦).

(٦) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٢٧١).

يقرأ العبد كتاب مولاه، الذي كتبه إليه؛ ليتأمله ويعمل بمقتضاه»[1].

وقال الخَوَّاص رحمه الله: «قلت لنفسي: يا نفس اقرئي القرآن كأنك سمعتيه من الله حين تكلم به، فجاءت الحلاوة»[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله» ا.هـ[3].

«فيُقَدِّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمرًا أو نهيًا قَدَّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعدًا أو وعيدًا فكذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السَّمَر غير مقصود، وإنما المقصود أن يعتبر بها، ويأخذ من تضاعيفها ما يحتاج إليه، وإذا قُصد بالخطاب جميع الناس، فهذا القارئ الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس، فليقدر أنه المقصود، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]»[4].

فإذا استجمع هذه الأمور فإن ذلك يقوده إلى ما بعدها، فمن ذلك:

٥- صدق الطلب والرغبة، وقوة الإقبال على كتاب الله عز وجل:

قال القرطبي رحمه الله: «فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل في قلبه نورًا» ا.هـ[5].

---

(١) الإحياء (٤/ ٥١٧).

(٢) السير (٨/ ١٨٠).

(٣) الفوائد ص٣.

(٤) الإحياء (٤/ ٥١٦ بهامش إتحاف السادة المتقين).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢٦).

وهذا يتطلب قدرًا من الصبر والإصرار. قال ثابت البناني رحمه الله: «كابدت القرآن عشرين سنة ثم تنعَّمْت به عشرين سنة»[(١)].

٦- القراءة بنية الامتثال:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده: إن حق تلاوته أن يُحِل حلاله، ويُحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله»[(٢)].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله...، وما تدبر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما يُرى القرآن له في خُلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَس! والله ما هؤلاء بالقراء، ولا بالعلماء، ولا الحكماء، ولا الوَرَعَة، متى كان القراء مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء»[(٣)].

وقال رحمه الله: «أُمِر الناس أن يعملوا بالقرآن فاتخذوا تلاوته عملًا»[(٤)].

وقال رحمه الله: «إن أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه وإن لم يكن قرأه»[(٥)].

قال الفضيل رحمه الله: «إنما نزل القرآن لِيُعْمَل به، فاتخذ الناس قراءته عملًا، قيل: كيف العمل به؟ قال: لِيُحِلوا حلاله، ويُحرِّمُوا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن

(١) الإحياء (٤/ ٥٢٤ بهامش الإتحاف).

(٢) رواه ابن جرير في جامع البيان (٢/ ٥٦٧).

(٣) رواه سعيد بن منصور في السنن (١٣٥، ط الحميد)، وابن مبارك في الزهد (٧٩٣)، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان (٢٤٠٨).

(٤) الداء والدواء (ص٣٥٧).

(٥) رواه أحمد في الزهد (ص٢٨٧)، و البيهقي في الجامع لشعب الإيمان (٩٦٠٠).

نواهيه، ويقفوا عند عجائبه»[١].

وقد كان السلف ﷺ لا يتجاوزون الآيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : «كان الرجل منا إذا تَعَلَّمَ عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»[٢].

وجاء نحوه عن أبي عبد الرحمن السلمي[٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، ولكن إذا وقع في القلب فَرَسَخَ فيه نَفَعَ»[٤].

«فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حسن من فعله وما قبح فيه، فما حذَّره مولاه حذره، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغَّب فيه مولاه رغب فيه ورجاه؛ فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهدًا وشفيعًا، وأنيسًا وحِرْزًا؛ ومن كان هذا وَصْفه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كل خير في الدنيا والآخرة»[٥]، «وكان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وعزَّ بلا عشيرة، وأنس مما يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها: متى أتعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده : متى أختم السورة؟ وإنما مراده: متى أعقل عن الله الخطاب، متى أزدجر، متى اعتبر؟ لأن تلاوة القرآن عبادة لا تكون بغفلة»[٦].

(١) رواه الخطيب في اقتضاء العلم العمل، رقم (١١٦).

(٢) رواه ابن جرير في جامع البيان (١/ ٨٠).

(٣) المصدر السابق (١/ ٨٠)

(٤) رواه مسلم (٨٢٢)، ونحوه في البخاري (٦/ ٢٣٨).

(٥) أخلاق أهل القرآن ص٢٥.

(٦) المصدر السابق ص٩

فالمسلم «يتصفح القرآن ليُؤدِّب به نفسه، هِمَّتُه: متى أكون من المتقين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أزهد في الدنيا؟ متى أنهى نفسي عن الهوى»(١).

قال يزيد بن الكُميت رحمه الله: «قرأ بنا علي بن الحسين المُؤَذِّن في عشاء الآخرة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ [الزلزلة: ١]، وأبو حنيفة خلفه فلما قضى الصلاة وخرج الناس نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يُفَكِّر ويتنفس، فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بي، وقد طلع الفجر وهو قائم قد أخذ بلحية نفسه وهو يقول: يا من يجزي بمثقال ذرة خير خيرًا، ويا من يجزي بمثقال ذرة شر شرًّا أجِرِ النعمان عبدَك من النار وما يُقَرِّب منها من السوء، وأدخله في سعة رحمتك.

قال: فأذنت، فإذا القنديل يزهر وهو قائم، فلما دخلت، قال: تريد أن تأخذ القنديل؟ قلت: قد أذنت لصلاة الغداة، قال: اكتم عليَّ ما رأيت»(٢).

قال في الإحياء: «وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل: تفسير المعاني، وحظ القلب: الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار. فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ» ا.هـ(٣).

«وينبغي للتالي أن يستوضح كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، فليعلم عظمته ويتلمح قدرته في كل ما يراه، وإذا تلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]، فليتفكر في نُطفة متشابهة الأجزاء كيف تنقسم إلى لحم وعظم، ... وإذا تلا أحوال المكذبين

(١) السابق ص٢٢ بتصرف.
(٢) تاريخ بغداد (١٣/ ٣٥٧).
(٣) الإحياء (٤/ ٥٢٣).

فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امتثال الأمر. وينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه المقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يرد بها السَّمَر بل العبر، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كَاتَبَه سيده بمقصود، وليتأمل الكتاب، وليعمل بمقتضاه»(١).

ووصف السيوطي رحمه الله الوقوف عند المعاني بقوله: «أن ينشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوّذ، أو تنزيه نزّه وعظّم، أو دعاء تضرع وطلب»(٢).

٧- تنزيل القرآن على الواقع:

إذا تقرر ما سبق فإنه يتعين على قارئ القرآن أن يستصحب الأحوال والملابسات التي نزل فيها القرآن، وكيف كان يعالج المواقف والوقائع حتى أخرج ذلك المجتمع والجيل الراشد الذي اهتدى بالقرآن، وحمل هداياته إلى نواحي المعمورة، وحقق انتشارًا وانتصارًا مُبْهِرًا في مدة قياسية قصيرة.

واليوم القرآن هو القرآن، والناس هم الناس، والصراع بين الحق والباطل قائم، والمواقف متكررة وإن تغيَّرت الأسماء، فما علينا إلا أن نعي كتاب الله تعالى ونتدبره، وعندئذ سنجد فيه ما يعيد الحق إلى نصابه، والعالَم إلى صوابه، فيتحرَّك دولاب التغيير من جديد كما كان في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وذلك حينما نُحرِّر نصوص القرآن من قيد الزمان والمكان. والله المستعان.

وأما حضور القلب:

فلا يخفى أن تلاوة القرآن أو سماعه لا يمكن أن يحصل معها تدبر أو اعتبار إذا

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٦٩، وانظر: الإحياء (٤/ ٥٠٧-٥١٢).
(٢) الإتقان (١/ ٣٠٠).

كان القلب غائبًا؛ لأنه موضع العقل، وقد مضى قول الحافظ ابن القيم رحمه الله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله» ا.هـ[1].

وقال الخازن رحمه الله: «وتدبر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب، وجمع الهم وقت تلاوته. ويشترط فيه تقليل الغذاء من الحلال الصرف، وخلوص النية» ا.هـ[2].

وما ذكرته في الشرط الأول - وهو وجود المحل القابل- له اتصال وثيق بهذا الموضع، إلا أن بينهما عمومًا وخصوصًا من وجه، فقد يكون صاحب القلب الحي مُشَوَّشًا أو مشغولًا، أو في موضع لا يتمكن معه من إحضار قلبه حال السماع أو التلاوة، فيقرأ الآيات أو السورة ويتجاوزها وهو لا يشعر؛ لأن قلبه لم يحضر معه لعارض.

وقد لا يكون القارئ أو المستمع من أصحاب القلوب الحية، لكنه لم يُطبع على قلبه، فإذا استمع أو قرأ مع حضور القلب فإنه ينتفع.

الشرط الثالث: وجود قدر من الفهم للكلام المقروء أو المسموع:

من المعلوم أن الفهم قضية نسبية، يقع فيها التفاوت كثيرًا، والناس فيها على ثلاث مراتب، ومن هنا حصل التفاوت بينهم في العلم والفقه.

ونحن لا نطالب العامي أن يفهم منه ما يفهم ابن عباس رضي الله عنهما، وإنما المقصود هنا حصول حد أدنى من الفهم لما يقرأ أو يسمع؛ بحيث لا يكون بمنزلة من خُوطِب بلغة غير لغته لا يعرفها، فإن من خُوطِب بما لا يفهم أصلًا لا يمكن أن

(١) الفوائد ص٣.

(٢) لباب التأويل (٤/ ١٥٠ بهامشة النسفي).

يتدبر مهما كان قلبه حيًّا، وأحضره حال الاستماع أو التلاوة.

ومن هنا يتعيَّن علينا أن ننظر إلى هذا الشرط بنوع اعتدال، فلا نشترط منه قدرًا لا يصدق إلا على العلماء، ولا نلغيه بالكلية فنطالب من كان بمنزلة الأعجمي أن يتدبر القرآن، وقد وصف الله تعالى كتابه بقوله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[فصلت: ٣]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمات، كما أخبر أنه يسَّره للذِّكر فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وقد سبقت الإشارة إلى العموم الوارد في الحث على تدبره ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، ولم يخص ذلك بأهل العلم دون غيرهم . مع أن ما يحصل للعالم من ذلك لا يقاس بما يحصل لغيره.

قال ابن جرير رحمه الله : «وفي حَثِّ الله عز وجلّ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة ص: ٢٩] ، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الزمر: ٢٧، ٢٨] وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عبادَه وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتِّعاظ بمواعظه- ما يدلُّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه.

لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: (اعْتَبِرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام)- إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهه،

ثم يتدبَّره ويعتبرَ به. فأما قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه، لو أنشِد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحِكم: (اعْتَبِرْ بما فيها من الأمثال، وادّكر بما فيها من المواعظ)- إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه، ثم الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحكم. فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق، فمحالٌ أمرُها بما دلَّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعِبَر. بل سواء أمرُها بذلك وأمرُ بعض البهائم به، إلا بعدَ العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها.

فكذلك ما في آي كتاب الله من العِبَرِ والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: (اعْتَبِرْ بها) إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا؛ وإلا بمعنى الأمر -لمن كان بذلك منهُ جاهلًا- أنْ يعلم معاني كلام العرب، ثم يتدبَّره بعدُ، ويتعظ بحِكَمِه وصُنوف عِبَرِه.

فإذْ كان ذلك كذلك - وكان الله جل ثناؤه قد أمر عباده بتدبُّره وحثهم على الاعتبار بأمثاله- كان معلومًا أنه لم يأمر بذلك من كان بما يدُلّ عليه آيُه جاهلًا. وإذْ لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهُمْ بما يدلهم عليه عالمون، صحَّ أنهم - بتأويل ما لم يُحجَبْ عنهم علمه من آيه الذي استأثر الله بعلمه منه دون خلقه، الذي قد قدّمنا صفَته آنفًا- عارفون. وإذْ صَحَّ ذلك فسَدَ قول من أنكر تفسيرَ المفسرين - من كتاب الله وتنزيلِه- ما لم يحجب عن خَلقه تأويله» ا.هـ(١).

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يَلْتَذّ بقراءته» ا.هـ(٢).

(١) جامع البيان (١/ ٨٢-٨٣).

(٢) معجم الأدباء (٦/ ٢٤٥٣).

وقال الزجاج رحمه الله تعليقًا على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧]: «من صَرَف قلبه إلى التَّفَهُّم» ا.هـ[١].

وقال القرطبي رحمه الله: «وينبغي له أن يَتعَلّم أحكام القرآن، فيَفْهَم عن الله مراده، وما فرض عليه، فيَنْتَفِع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟! وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذا حاله إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا» ا.هـ[٢].

وقال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله: «وتدبُّر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن؛ وكذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، وعَقْل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك» ا.هـ[٣].

وقال الشنقيطي رحمه الله: «فإذا علمت – أيها المسلم – أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله الله ليُستضاء به، ويُهْتَدى بهداه في أرضه، فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور؟! ... يجب عليك الجد والاجتهاد في تعلم كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ بالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما علمًا صحيحًا» ا.هـ[٤].

وكلام أهل العلم في هذا المعنى كثير جدًّا، لا حاجة للتطويل بإيراده ونَقْلِه.

أما من أراد الغَوص في المعاني، واستخراج نفائس الجواهر واللآلئ فإنه بحاجة إلى معرفة بعلوم العربية بأنواعها، إلى غير ذلك من العلوم المساعدة في التفسير، مع طول النظر في كلام السلف في التفسير، وكثرة القراءة في كتب التفسير التي تَمَيَّز

(١) معاني القرآن (٥/ ٤٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٨).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٢).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٤٦٥ – ٤٦٦).

مؤلفوها بالتحقيق والتأصيل، والقدرة البارعة على الجمع بين الأقوال أو الترجيح، أو التوجيه، كأبي جعفر بن جرير، والحافظ ابن كثير، والشنقيطي، مع ما جُمِع من كلام الإمامين - ابن تيمية، وابن القيم- في التفسير. فإن سَاعَد مع ذلك وجود المَلَكَة، وتَوَقُّد القريحة فذاك كنور العين مع ضوء الشمس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله ﷺ من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه؛ فمعرفة العربية التي خُوطبنا بها مما يعين على أن نفقة مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني؛ فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله ﷺ على ما يدَّعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك» ا.هـ [1].

ومما سبق يتضح لنا أمران:

الأول: أن الناس متفاوتون في التدبر[2]:

قال ابن القيم رحمه الله: «والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكمًا أو حكمين، ومنهم من يفهم عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه، ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه إلى آخِر نص متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا ينتبه له إلا النادر من أهل العلم؛ فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به، وهذا كما فهم ابن عباس رضي الله عنهما من قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٦).

(٢) انظر: فيض القدير (١/ ٥٦١).

[الأحقاف: ١٥]، مع قوله: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، أن المرأة قد تلد لستة أشهر[١]، وكما فهم الصِّدِّيق من آية الفرائض في أول السورة وآخرها أن الكلالة من لا ولد له ولا والد[٢]» ا.هـ[٣].

الثاني: أن التدبر لا يختص بالعلماء:

يقول الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله-سبحانه- كمَّل عقول العباد، ورزقهم فهم كلامه. ثم إن فَهْم كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عند قرعها الأسماع لا يحتاج في معناها إلى علم النحو، ولا إلى علم الأصول، بل في الأفهام والطباع والعقول ما يجعلها تُسَارِع إلى معرفة المراد؛ فإن من قرع سمعه قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٠]، يفهم معناه من دون أن يعرف أن (ما) كلمة شرط، و(تقدموا) مجزوم بها لأنه شرطها، و(تجدوه) مجزوم بها لأنه جزاؤها، ومثلها كثير. ثم إنك ترى العامة يستفتون العالم ويفهمون كلامه وجوابه وهو كلام غير معرب في الأغلب، بل تراهم يسمعون القرآن فيفهمون معناه ويبكون لقوارعه وما حواه، ولا يعرفون إعرابًا، ولا غيره، بل ربما كان موقع ما يسمعونه في قلوبهم أعظم من موقعه في قلوب من حقق قواعد الاجتهاد، وبلغ الذكاء والانتقاد. ثم إن هؤلاء العامة يحضرون الخطب في الجمع والأعياد، ويذوقون الوعظ ويفهمونه ويفتت منهم الأكباد، وتدمع منهم العيون، فيكثر منهم البكاء والنحيب. ثم إنك تراهم يقرؤون كتبًا مؤلفة من الفروع الفقهية ويفهمون ما فيها، ويعرفون معناها، ويعتمدون عليها، ويرجعون في الفتوى والخصومات إليها.

فيا ليت شعري! ما الذي خص الكتاب والسنة بالمنع عن معرفة معانيها، وفهم تراكيبها ومبانيها، والإعراض عن استخراج ما فيها، حتى جعلت معانيها

---

(١) رواه عبد الرزاق (١٣٤٤٦-١٣٤٤٧).

(٢) رواه عبد الرزاق (١٩١٩١)، والدارمي (٣٠١٥)، والبيهقي (٦/ ٢٢٣-٢٢٤)وغيرهم.

(٣) إعلام الموقعين (٣/ ١٢٦).

كالمقصورات في الخيام، قد ضربت دونها السجوف، ولم يبق لنا إليها إلا ترديد ألفاظها والحروف، وأن استنباط معانيها قد صار حِجْرًا محجورًا، وحرمًا محرمًا محصورًا؟!» ا.هـ [١].

وأما انتفاء الموانع:

فإن ما ذُكر من الشروط الأصلية أو ما يتفرع عنها إذا تخلَّف شيء منها كان ذلك عائقًا دون التدبر، وبذلك نستطيع أن نتعرف على كثير من معوقات التدبر.

ولا بأس هنا أن أُشير إلى جملة من هذه المعوقات على سبيل الإيجاز؛ فمن ذلك:

أولًا: عدم وجود المَحَل القابل، أو ضعفه:

تتنوع القلوب وتختلف أوصافها بحسب ما يقوم بها من الإيمان أو الكفر أو النفاق، أو غير ذلك من الأدواء التي قد تحول دون التدبر بالكلية، وقد تضعفه وتوهنه.

أما ما يصرفه بالكلية: فالطبع والختم وما في معناهما[٢] -كما سبق- فيصير العبد في الحال التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يونس: ٤٢ – ٤٣]، وقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقد شرح الحافظ ابن القيم رحمه الله هذه الحُجب، وحاصل ما ذكر[٣]:

أما الأكِنَّة: ... وهي جمع كِنَان، ... وأصله من الستر والتغطية... وهو

---

(١) إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد (١/ ٣٦ ضمن الرسائل المنيرية).

(٢) ينظر على سبيل المثال: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٧-٣١٩).

(٣) شفاء العليل (١/ ٢٩٤- ٢٩٨).

كالغلاف، وقد أقروا على أنفسهم بذلك فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥]، فذكروا غطاء القلب وهي الأكنة، وغطاء الأذن وهو الوقر، وغطاء العين وهو الحجاب. والمعنى: إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ما تقول، ولا يراك...

وأما الغطاء : فقال تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٠ – ١٠١]، وهذا يتضمن معنيين:

أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده وعجائب قدرته.

والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به. وهذا الغطاء للقلب أولًا، ثم يسري منه إلى العين...

وأما الغلاف: فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]، وقد اختُلف في معنى قولهم: (قلوبنا غُلْف)... والصحيح قول أكثر المفسرين: أن المعنى: قلوبنا لا تفقه ولا تفهم ما تقول.

وعلى هذا فهو جمع أغلف... قال ابن عباس وقتادة ومجاهد: على قلوبنا غشاوة[1]، فهي في أوعية، فلا تعي ولا تفقه ما تقول. وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن...

فإن قيل: فالإضراب ببل على هذا القول الذي قويتموه ما معناه؟ ...

قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور، وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه، فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خُلقت في غُلف، فهم معذورون في عدم الإيمان، فأكذبهم الله وقال: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾

---

(١) جامع البيان (١/ ٣٢٦).

[النساء: ١٥٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨]، فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان، فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة. والمعنى: لم نخلق قلوبهم غُلفًا لا تعي ولا تفقه ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها...

وأما الحجاب : ففي قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] ، وقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، على أصح القولين. والمعنى: جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجابًا يحول بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به. ويبينه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وهذه الثلاثة هي الثلاثة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، فأخبر سبحانه أن ذلك جَعْله، فالحجاب يمنع رؤية الحق، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه...

وأما الران: فقد قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]...قال أبو معاذ النحوي: الرين: أن يَسْوَد القلب من الذنوب. والطبع: أن يُطبع على القلب، وهو أشد من الرين[1]. والإقفال: أشد من الطبع، وهو أن يُقفل على القلب.

وقال الفراء: كثرت الذنوب والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها[2]...

وأما الرين والران: فهو من أغلظ الحُجب على القلب وأكثفها. وقال مجاهد: هو

(١) تهذيب اللغة (٥/ ٢٢٥).

(٢) معاني القرآن (٣/ ٢٤٦).

الذنب على الذنب حتى تُحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب[1]. وقال مقاتل: غمرت القلوب أعمالُهم الخبيثة[2]. وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: ((**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نَزَعَ واستغفر وتاب صُقِل قلبهُ، وإن زاد زِيْد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الرَّان الذي ذكر الله** ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤])) ، قال الترمذي : هذا حديث صحيح[3]. وقال عبد الله ابن مسعود: «كلما أذنب نُكِت في قلبه نكتة سوداء حتى يَسْوَدَّ القلب كله»[4].

فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي اكتسبوها أوجبت لهم رينًا على قلوبهم، فكان سبب الران منهم، وهو خَلْق الله فيهم . فهو خالق السبب ومُسَبَّبِه، لكن السبب باختيار العبد، والمُسَبَّب خارج عن قدرته واختياره.

... وأما الغُل: فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس: ٧ - ١٠]، قال أبو عبيدة: منعناهم عن الإيمان بموانع[5].

ولما كان الغُل مانعًا للمغلول من التصرف والتقلب كان الغُل الذي على القلب مانعًا من الإيمان. فإن قيل: فالغُل المانع من الإيمان هو الذي في القلب، فكيف ذكر الغُل الذي في العُنق؟ قيل: لما كان عادة الغُل أن يوضع في العُنق ناسب ذكره ذِكر

---

(١) رواه ابن جرير في جامع البيان (٢٤/ ٢٠٤) بنحوه.

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٩٧).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٣١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٢١)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وابن حبان (١٧٧١)، والحاكم (٢/ ٥١٧)، وغيرهم، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٨٣٦)، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان (٦٨٠٩).

(٥) حكاه ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٨) ولم يعزه إلى أحد.

محله، والمراد به القلب، كقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣].

وأما ما يُضْعِفُه: فأمور عدة، منها:

١- الذنوب والمعاصي:

ينبغي على المسلم أن يتخلى «عن موانع الفهم، ومن ذلك أن يكون مُصِرًّا على ذنب، أو متصفًا بكِبْر، أو مُبتلًى بهوى مُطاع، فإن ذلك سبب ظُلْمَة القلب وصَدَئِه، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل جلاء المرآة»[(١)].

قال الزركشي رحمه الله: «اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعة أو كِبْر أو هوى أو حب دنيا، أو هو مُصِرّ على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على مفسر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حُجب وموانع بعضها آكد من بعض» ا.هـ[(٢)].

قال بعض السلف: «أذنبت ذنبًا فحُرِمت فهم القرآن»[(٣)].

وقد تكون بعض الذنوب أبلغ في التأثير على القلب من بعض، كالغناء، فإنه سماع أهل الشهوات المحرمة، وكثير منهم يستعيض به عن سماع القرآن، والواقع «أنه يُلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره والعمل بما فيه؛ فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبدًا لما بينهما من التضاد؛ فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى، ويأمر بالعفة ومجانبة شهوات النفوس وأسباب الغي...»[(٤)].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٦٩. (مع الاختصار والتصرف). وانظر: الإحياء (٤/ ٥١٤-٥١٥).

(٢) البرهان (٢/ ١٨١). (مع الاختصار والتصرف).

(٣) طريق الهجرتين (٢/ ٥٨٩).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٤٤٥)، وراجع بقية كلامه رحمه الله.

قال ابن القيم في القصيدة النونية:

والله إن سماعهم في القلب والْـ إيمانِ مثل السّمِّ في الأبْدَانِ
فالقلب بَيْتُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالهُ حبًّا وإخلاصًا مع الإحْسَانِ
فإذا تَعَلَّق بالسَّمَاع أحَالَهُ عبدًا لكل فُلَانة وفلانِ
حُبّ الكتاب وحُب ألْحَان الغِنَا في قلب عَبْدٍ ليس يَجْتَمِعَانِ[1]

٢- الفضول من النظر والكلام والخُلْطة والنوم والأكل والشرب:

قال المروزي رحمه الله: «قلت لأبي عبد الله - يعني الإمام أحمد- رحمه الله: يجد الرجل من قلبه رِقَّة وهو شَبِع؟ قال: ما أرى»[2].

وعن محمد بن واسع رحمه الله قال: «من قَلَّ طُعْمُه فهم وأفهم وصفا ورَقّ، وإن كثرة الطعام ليثقل صاحبه عن كثير مما يريد»[3].

وعن أبي سليمان الداراني رحمه الله قال: «إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها؛ فإن الأكل يغير العقل»[4].

وعن قُثَم العابد رحمه الله قال: «كان يقال: ما قَلَّ طعام امرئ قط إلا رَقّ قلبه ونَدِيَتْ عيناه»[5].

وعن أبي عمران الجوني رحمه الله قال: «كان يقال: من أحب أن يُنَوَّرَ قَلْبهُ فَلْيُقَل طُعْمَه»[6].

---

(١) الكافية الشافية رقم(٥١٦١-٥١٦٥).
(٢) الورع للمروزي (٣٢٣).
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الجوع (٤٩).
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الجوع (٨٧).
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في الجوع (١٢٤).
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في الجوع (١٤٢).

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله قال: «من ضَبَطَ بطنه ضَبَط دينه، ومن مَلَك جُوعَه مَلَك الأخلاق الصالحة»(١).

وقال الحسن بن يحيى الخُشَني رحمه الله : «من أراد أن يُغزِّر دموعه ويَرِقّ قلبه فليأكل وليشرب في نصف بطنه. وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله : فحَدَّثْتُ بهذا أبا سليمان فقال: إنما جاء الحديث: «ثلث طعام وثلث شراب»، وأرى هؤلاء قد حاسبوا أنفسهم فربحوا سُدُسًا»(٢).

وعن الشافعي رحمه الله قال: «ما شبعت منذ ستة عشر سنة إلا شبعة أطرحها؛ لأن الشِّبَع يُثْقِل البدن ويُزِيل الفِطْنة ويجلب النوم ويُضْعِف صاحبه عن العبادة»(٣).

وقالت عائشة رضي الله عنها : «أول بدعة حدثت بعد رسول الله: الشِّبَع، إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت نفوسهم إلى الدنيا»(٤).

ثانيًا: عدم حضور القلب :

وقد مضى كلام الحافظ ابن القيم رحمه الله حيث جعل «الناس ثلاثة: رجل قلبه ميت... **الثاني**: رجل له قلب حي... لكنه مشغول ليس بحاضر؛ فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى. **والثالث**: رجل حي القلب مستعد، تُليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع، وأحضر القلب، ولم يشغله بغير فهم ما يسمع، فهو شاهد القلب، فهذا القِسْم هو الذي ينتفع بالآيات»(٥).

---

(١) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣/ ١٢٤٢).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٢٧).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الجوع (٢٢).

(٥) مدارج السالكين (١/ ٤٤٢).

وإنما يتخلف القلب عن الحضور حال التلاوة أو السماع لأسباب متعددة، منها:

أ- أن يكون مطلوب القارئ منحصرًا في القراءة فقط والإكثار منها فحسب؛ طلبًا للأجر، وقد مضى الكلام على ما يتصل بهذا المعنى عند الكلام على الشروط.

قال الحسن رحمه الله: «يا ابن آدم كيف يرق قلبك، وإنما همتك في آخر السورة؟»[(١)].

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «وقد لبَّس على قوم بكثرة التلاوة، فهم يَهُذُّون هَذًّا، من غير ترتيل ولا تَثَبُّت، وهذه حالة ليست بمحمودة، وقد روى جماعة من السلف أنهم كانوا يقرؤون القرآن في كل يوم أو في كل ركعة، وهذا يكون نادرًا منهم، ومن داوم عليه فإنه وإن كان جائزًا إلا أن الترتيل والتثبت أحب إلى العلماء، وقد قال الرسول ﷺ: ((**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**))» ا.هـ[(٢)].

ب- اشتغال القلب بمخارج الحروف، والمبالغة في ذلك، والتكلف في الإتيان بالمدود؛ فإن القلب يتوجه عندئذ إلى القوالب اللفظية دون أن يتجاوزها إلى المعاني[(٣)].

ج- قِلَّة الرغبة في تَفَهُّمِه، وتَوَفُّر الهمة في الاشتغال بغيره من العلوم، وهذا حال كثير من طلاب العلم وغيرهم. وكان شعبة بن الحجاج رحمه الله يقول لأصحاب الحديث: «يا قوم إنكم كلما تقدمتم في الحديث تأخرتم في القرآن»[(٤)].

وقال الشافعي رحمه الله عن القرآن: «حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من عِلْمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في

---

(١) الزهد لأحمد ص٢٥٩، مختصر قيام الليل للمروزي ص٦٤.

(٢) تلبيس إبليس ص١٤٣. وانظر نحوه ص١١٠.

(٣) للاستزادة راجع: الإحياء (٤/ ٥١٢ بهامش الإتحاف).

(٤) السير (٧/ ٢٢٣).

استدراك عِلْمه: نصًّا واستنباطًا، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يُدرَك خير إلا بعونه؛ فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصًّا واستدلالًا، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرِّيَب، ونَوَّرَت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة» ا.هـ (١).

وقال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله: «وأما طلب حفظ القرآن: فهو مقدم على كثير مما تسميه الناس علمًا: وهو إما باطل أو قليل النفع، وهو أيضًا مُقَدَّم في التعلم في حق من يريد أن يَتَعَلَّم علم الدين من الأصول والفروع، فإن المشروع في حق مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن فإنه أصل علوم الدين،... والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإن لم تكن هذه هِمَّة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين» ا.هـ (٢).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «ولو تفكروا لَعَلِموا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه، ثم فهمه، ثم العمل به، ثم الإقبال على ما يُصلح النفس ويُطهر أخلاقها، ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع. ومن الغبن الفاحش تضييع الزمان فيما غيره الأهم» ا.هـ (٣).

د- قد يكون عدم حضور القلب لِتَفَرُّقِه لأمور عارضة من هَمّ بصاحبه، أو انفعال وتوتُّر، أو قلق مُزعج، أو فرح مُفرِط، أو أَلَمَ يُعانيه، أو حَقْن أو حَقْب أو غير ذلك من الأمور التي تعرض للإنسان، فينبغي أن يكون وِرْدُنا في التدبر في حالٍ تتهيأ فيها النفس، وتكون مستعدة للتدبر والتفهم.

---

(١) الرسالة ص١٩.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٥٤-٥٥).

(٣) تلبيس إبليس ص١١١.

ثالثًا: التصورات الذهنية القاصرة:

إن الإنسان -كما سبق- أسير لمعتقداته وتصوراته وأفكاره، فمن التصورات الفاسدة التي تحول دون التدبر:

١- اعتقاد أن القرآن نزل لمعالجة أوضاع وأحوال كانت في عصر التنزيل، ولا تَعَلُّق له بحياة الناس المعاصرة ومستجداتها!!

وقد مضى طرف من الكلام الذي له تَعَلُّق بهذه القضية عند الكلام على شروط التدبر. وهكذا من ينظر إليه باعتبار أنه كتاب يُقرأ للبركة فحسب، أو للرقية، أو في المآتم والأحزان.

قال ابن القيم رحمه الله: «أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن. ولعمر الله إن كان أولئك قد خَلَوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك» ا.هـ[(١)].

وقال الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله: «وربما سمع بعضهم قول من يقول من المفسرين: هذه نزلت في عُبَّاد الأصنام، هذه نزلت في النصارى، هذه في الصابئة، فيظن الغُمر أن ذلك مختص بهم، وأن الحكم لا يتعداهم، وهذا من أكبر الأسباب التي تحول بين العبد وبين فهم القرآن والسنة» ا.هـ[(٢)].

٢- الورع البارد:

وذلك أن بعضهم ربما ترك التدبر تورُّعًا من القول على الله بلا علم.

يقول عن ذلك ابن هُبيرة رحمه الله: «من مكايد الشيطان: تنفيره عباد الله من تدبر

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٣).

(٢) تحفة الطالب والجليس ص٦٥، وضمن الدرر السنية (١٢/ ٢٠٥).

القرآن لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورعًا» ا.هـ [(١)].

ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: «ومن قال: إن له تأويلًا لا نفهمه ولا نعلمه وإنما نتلوه متعبِّدين بألفاظه ففي قلبه منه حرج» ا.هـ [(٢)].

وقال الشنقيطي رحمه الله: «قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة...قول لا مستند له من دليل شرعي أصلًا. بل الحق الذي لا شك فيه أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما...

مما يوضح ذلك: أن المُخَاطَبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، ليس أحد منهم مستكملًا لشروط الاجتهاد المقررة... لو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به، والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي لما وبَّخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به...

ولتعلم أن كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان أيسر منه بكثير في القرون الأولى؛ لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك... فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي ﷺ ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين» ا.هـ [(٣)].

والله تعالى أعلم وصلى على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٥٦).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ص٣٤٣.

(٣) أضواء البيان (٧/ ٤٥٩-٤٦٠). وراجع بقية كلامه رحمه الله فإنه مفيد.

خاتمة تتضمن أهم نتائج البحث مع التوصيات

تبين من خلال هذه الدراسة:

١. أن التدبر قضية نسبية يتفاوت الناس فيها، بل تتفاوت لدى الشخص نفسه في أحواله المختلفة نظرًا للتفاوت الحاصل في مقدمتها.

٢. هناك شروط لا بد من تحققها لتحصيل التدبر، وهي ثلاثة:

أ. وجود المحل القابل (القلب الحي).

ب. العمل الذي يصدر من المكلف (القراءة أو الاستماع مع حضور القلب).

ج. قدر من الفهم للكلام المقروء أو المسموع.

وهي أمور متفاوته، ولكل واحد منها جملة من الأسباب التي يقوى بتحقيقها، ويضعف أو يتلاشى بانعدامها. ويجمع هذه الشروط قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

٣. أن التدبر لا يختص بالعلماء، وإنما يحصل لغيرهم مع تفاضلهم فيه.

٤. هناك موانع قد ينتفي معها التدبر بالكلية، كالطبع والختم على القلوب، وقد تضعفه، كالمعاصي، والاشتغال بالفضول بأنواعه ونحو ذلك.

التوصيات:

١) لزوم العناية بالقلب ليكون محلاً قابلاً للتدبر. ومن هنا تأتي أهمية التربية الإيمانية بجانب تعلم القرآن وحفظه.

٢) ضرورة العناية بكتاب الله تعالى، تلاوة وَتَفَهُّمًا وتَدَبُّرًا، وأن نُعطيه من الوقت أشرفه، لا أن نكتفي بتلاوة عابرة في فضول الأوقات.

٣) على المسلم أن ينظر في الأصلح لحاله، والأدعى لتدبره فيما يتعلق باختيار وقت التلاوة، وصفتها، ومكانها، والحال التي يكون عليها عند القراءة، أو الاستماع لمن يجد قلبه عند سماع قراءته.

٤) على طالب التدبر أن يستشعر أهميته مع تَذَكُّر عظمة المتكلم بالقرآن، وأن يدرك أن سعادته منوطة باتباع هذا القرآن، مع استحضار أنه المخاطب به، مع صدق الرغبة، وقصد الامتثال، وربط القرآن بواقعه، مع حضور القلب.

٥) ينبغي تجنب الأمور التي تحول بين العبد والتدبر أيًّا كان نوعها.

٦) يحسن بالمسلم أن يتعرف على معاني القرآن بحسب استطاعته، كأن يقرأ في كتاب مختصر في غريب القرآن، وآخر في التفسير، بأسلوب سهل مُيسَّر.

ملحق في الكلام على قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

(تعليق إجمالي على الآية من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله)

قال ابن تيمية رحمه الله: «فإن من يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم على منزلتين: إما رجل رأى الحق بنفسه فقبله فاتبعه ولم يحتج إلى من يدعوه إليه فذلك صاحب القلب؛ أو رجل لم يعقله بنفسه بل هو محتاج إلى من يعلمه ويُبَيِّنه له ويَعِظُهُ وَيُؤَدِّبُهُ فهذا أصغى فـ: ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. أي: حاضر القَلب ليس بغائبه . كما قال مجاهد: أوتي العلم وكان له ذكرى»[(١)].

«وأيضًا فذكر الإنسان يحصل بما عرفه من العلوم قبل هذا، فيحصل بمجرد عقله، وخشيته تكون بما سمعه من الوعيد، فبالأول يكون ممن له قلب يعقل به، والثاني يكون ممن له أذن يسمع بها.

وقد تحصل الذكرى الموجبة للخير بهذا وبهذا، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٧].

فالذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعًا يعقل به ما قالوه ينجو، وإلا فالسمع بلا عقل لا ينفعه كما قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد: ١٦]. وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾[يونس: ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ٣١١).

قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

وكذلك العقل بلا سمع لما جاءت به الرسل لا ينفع. وقَد اعترف أهل النَّار بمجيء الرُّسُل فقالوا: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الملك: ٩]. وَكَذَلِكَ الْمُعْتَبِرِينَ بِآثَارِ الْمُعَذَّبِينَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦]. إنما ينتفعون إذا سمعوا أخبار المعذبين المكذبين للرسل والناجين الذين صدقوهم فسمعوا قول الرسل وصدقوهم» ا.هـ[(١)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «الناس ثلاثة: رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة، إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجلٌ حيُّ القلبِ مستعد، تُلِيَتْ عليه الآيات، فأصْغَى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، مُلْقٍ السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله

(١) السابق (١٦/ ١٨٠- ١٨١).

على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور!

فإن قيل: فما موقع (أو) من هذا النظم على ما قررت؟

قيل: فيها سر لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنى الواو كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقَّاد، مليءٌ باستخراج العِبَر، واستنباط الحِكَم، فهذا قلبه يُوقِعُه على التذكر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نورًا على نور. وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيمانًا وبصيرة، حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول مُشَاهَد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه، حتى قيل: إن مثل حال الصِّدِّيق مع النبي ﷺ، كمثل رجلين دخلا دارًا، فرأى أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته، والآخر وقعت يده على ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته، لكن علم أن فيها أمورًا عظيمة، لم يدرك بصره تفاصيلها، ثم خرجا فسأله عما رأى في الدار، فجعل كلما أخبره بشيء صدَّقه، لما عنده من شواهد، وهذه أعلى الدرجات الصِّدِّيقية، ولا تستبعد أن يمن الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان، فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة ازداد بها نورًا إلى نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضًا ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مُقَرَّبُون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما»[1].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٢ - ٤٤٣).

«قلت: جعل الله سبحانه كلامه ذكرى لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة:

أحدها: أن يكون له قلب حي واع، فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

الثاني: أن يصغي بسمعه فيميله كله نحو المخاطِب، فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

الثالث: أن يُحْضِر قلبه وذهنه عند المُكَلِّم له، وهو الشهيد، أي: الحاضر غير الغائب، فإن غاب قلبه وسافر في موضع آخر لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أن المُبصِر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مُبْصِرة، وحَدَّق بها نحو المرئي، ولم يكن قلبه مشغولًا بغير ذلك، فإن فَقَد القوة المبصرة، أو لم يُحدِّق نحو المرئي، أو حَدَّق نحوه ولكن قلبه كله في موضع آخر لم يدركه، فكثيرًا ما يمر بك إنسان أو غيره وقلبك مشغول بغيره فلا تشعر بمروره. فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره وكمال الإصغاء»(١).

«فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها؛ فإنه سبحانه ذكر عن آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة إنما(٢) تكون تذكرة لمن كان له قلب؛ فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم، وكمرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات؛ فإنه يراها، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين:

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٣١).

(٢) هكذا العبارة في هذه الطبعة. ولعل الصواب: (أنها).

أحدهما: أن يُحضِره ويُشْهِده لما يلقى إليه؛ فإن كان غائبًا عنه مسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يُلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يُوعَظ به ويُرشَد إليه. وها هنا ثلاثة أمور:

أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق.

الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذِّكْر، فذَكَر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية»(1).

«وأيضًا فإن الآية تضمنت تقسيمًا وترديدًا بين قسمين:

أحدهما: من كان له قلب.

والثاني: من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يغب، فهو حاضر القلب شاهده لا غائبه. وهذا - والله أعلم - سر الإتيان بـ(أو) دون الواو؛ لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان:

أحدهما: ذو القلب الواعي الزكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه، ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته، بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض عنه، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط لكمال استعداده وصحة فطرته، فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوبًا فيه، فهو قد أدركه مجملًا، ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملًا، وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل، كما هي حال الصديق الأكبر ﷺ.

والنوع الثاني: من ليس له هذا الاستعداد والقبول، فإذا ورد عليه الهدى أصغى

---

(1) مفتاح دار السعادة (1/ 512-513).

إليه بسمعه، وأحضر قلبه، وجمع فكرته عليه، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله. وهذه طريقة أكثر المستجيبين، ولهم نوع ضرب الأمثال، وإقامة الحجج، وذِكْر المعارضات و الأجوبة عنها»[1].

«فلم يُختلف في أن المراد بالقلب: القلب الواعي، وأن المراد بإلقاء السمع: إصغاؤه وإقباله على المُذَكِّر، وتفريغ سمعه له. واختُلِف في الشهيد على أربعة أقوال:

أحدها: أنه من المشاهدة، وهي الحضور، وهذا أصح الأقوال، ولا يليق بالآية غيره... فإن قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].جملة حالية، والواو فيها واو الحال، أي: ألقى السمع في هذه الحال. وهذا يقتضي أن يكون حال إلقائه السمع شهيدًا»[2].

والمقصود أنك متى ما أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألْقِ سَمْعَكَ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكَلَّم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٧]، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مُؤَثِّر مُقْتَض، ومَحَل قَابِل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾[ق: ٣٧] إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا، وهذا هو المؤثر. وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]. فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥١٦-٥١٧).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥١٥).

حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]. أي: حي القلب.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ [ق: ٣٧]. أي: وجَّه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام. وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. أي: شاهد القلب حاضر غير غائب.

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ [١] : «اسْتَمَع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله. فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووُجِد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر»[٢].

«فجمع سبحانه بين السمع والعقل، وأقام بهما حجته على عباده، فلا ينفك أحدهما عن صاحبه أصلًا، فالكتاب المنزل والعقل المُدْرِك حجة الله على خلقه»[٣].

---

(١) تفسير غريب القرآن (ص٤١٩).

(٢) الفوائد (ص٣-٤).

(٣) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٥٨).

قائمة المراجع

○ **إحياء علوم الدين**: لأبي حامد الغزالي، بهامش إتحاف السادة المتقين، ط. مؤسسة التاريخ العربي، عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

○ **أخلاق أهل القرآن**: للآجري، تحقيق: عبد العزيز القارئ، ط. مؤسسة العنود الخيرية، -لا يوجد تاريخ الطبع-.

○ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم** المعروف بـ«تفسير أبي السعود»: لأبي السعود، تحقيق: عبد القادر عطا، ط. مكتبة الرياض الحديثة، -لا يوجد تاريخ الطبع-.

○ **إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد**: للصنعاني، ط. المنيرية، الطبعة الأولى، عام ١٣٤٣هـ.

○ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: لمحمد الأمين الشنقيطي، ط. دار عالم الفوائد، -لا يوجد تاريخ الطبع-.

○ **إعلام الموقعين عن رب العالمين**: لابن القيم، تحقيق: مشهور آل سلمان، ط.ابن الجوزي، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

○ **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**: لابن القيم، تحقيق: علي الحلبي، ط.دار ابن الجوزي، الطبعة الثالثة عام ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م.

○ **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**: لابن تيمية، تحقيق: ناصر العقل، ط. الرشد، الطبعة الأولى، -لا يوجد تاريخ الطبع-.

○ **اقتضاء العلم العمل**: للخطيب البغدادي، تحقيق: الألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

○ **الآداب الشرعية**: لابن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، الطبعة الثالثة، عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

○ **الإتقان في علوم القرآن**: للسيوطي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط.دار التراث.

○ **الأذكار**: للنووي، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ط. دار الهدى، الطبعة الثامنة، عام ١٤٢٢هـ.

○ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** -المعروف بـ(تفسير البيضاوي)-: للبيضاوي، وبهامشه حاشية الكازروني، ط .مؤسسة شعبان، -لا يوجد تاريخ الطبع-.

○ **البحر المحيط**: لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، عام ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

○ **البرهان في علوم القرآن**: للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار التراث.

○ **بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام**: لابن القطان، تحقيق: الحسن آيت سعيد، ط. دار طيبة، الطبعة الأولى، عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

- **تاريخ بغداد**: للخطيب البغدادي، تحقيق: حامد الفقي، ط. السلفية، تصوير دار الكتاب العربي، -لا يوجد تاريخ الطبع-.
- **تاريخ مدينة دمشق**: لابن عساكر، تحقيق: عمر بن غرامة العموري، ط. دار الفكر، الطبعة الأولى، عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- **تحفة الطالب والجليس**: لعبد اللطيف آل الشيخ، تحقيق: عبد السلام العبد الكريم، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٨هـ.
- **التبيان في آداب حملة القرآن**: للنووي، تحقيق: بشير عيون، ط. مكتبة البيان، الطبعة الرابعة، عام ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
- **التحرير والتنوير**: للطاهر ابن عاشور، ط. الدار التونسية، عام ١٩٨٤م.
- **التسهيل لعلوم التنزيل**: لابن جزي الكلبي، ط. دار الفكر، -لا يوجد تاريخ الطبع-.
- **تفسير القرآن العظيم**: لابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد الطيب، ط. مكتبة نزار الباز، الطبعة الأولى، عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧هـ.
- **تفسير القرآن العظيم**: لابن كثير، ت. ياسر سلامة ، ط. دار طيبة، الطبعة الأولى من الإصدار الثاني، عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- **تفسير الكشاف**: للزمخشري، ط. دار الفكر.
- **تفسير غريب القرآن**: لابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط. دار الكتب العلمية، عام ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- **تفسير مقاتل بن سليمان**: مقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق: أحمد فريد، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- **تفسير القرآن العزيز**: لابن أبي زمنين، تحقيق: حسين عكاشة ومحمد الكنز، ط. دار الفاروق الحديثة، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- **تلبيس إبليس**: لابن الجوزي، تحقيق: محمود الإسطانبولي، ط. الحسيني.
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**: للشيخ عبد الرحمن بن سعدي، تحقيق: سعد الصميل، ط. دار ابن الجوزي.
- **تهذيب اللغة**: للأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون، ط. الدار المصرية العامة.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: لابن جرير الطبري، وله طبعتان:

الأولى: بتحقيق: محمود شاكر، ط. المعارف، الطبعة الثانية، من البداية إلى سورة إبراهيم.

الثانية: بتحقيق: عبد الله التركي، ط .دار هجر، واعتمدتها من سورة إبراهيم إلى نهاية التفسير.

- **الجامع الكبير**: للترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، ط الغرب الإسلامي، ط١، عام ١٩٩٦م.

- **الجامع لأحكام القرآن**: لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط. الرسالة، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- **الجامع لشعب الإيمان**: للبيهقي، حققه: عبد العلي حامد، ط.دار الرشد، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم**: لابن رجب، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، ط. دار السلام، الطبعة الثانية، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠١م.
- **الجوع**: لابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم، الطبعة الأولى، عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: لأبي نعيم الأصفهاني، تصوير: دار الكتب العلمية.
- **الداء والدواء**: لابن القيم، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٩هـ.
- **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**: جمع: عبد الرحمن القاسم، ط٦، عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**: للسيوطي، تحقيق: عبد الله التركي، ط. دار هجر، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٤هـ .
- **الذيل على طبقات الحنابلة**: لابن رجب، تحقيق: عبد الرحمن العثيمين، ط. العبيكان، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.
- **الرسالة**: للشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، ط. التراث.
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: للألوسي، ط. دار إحياء التراث العربي.
- **زاد المسير في علم التفسير**: لابن الجوزي، ط. المكتب الإسلامي.
- **السنن الكبرى** : للبيهقي، ط. الهندية، تصوير مكتبة ابن تيمية، لا يوجد تاريخ الطبع.
- **سنن ابن ماجه**: لابن ماجه، حققه: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. المطبعة الإسلامية باسطنبول، لا يوجد تاريخ الطبع.
- **سنن أبي داود**: لأبي داود، حققه: محمد عوامة، ط. دار القبلة ومؤسسة الريان، الطبعة الثانية، عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.
- **سنن سعيد بن منصور**: تحقيق: سعد آل حميد، ط. دار الصميعي، ط١، عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- **سنن النسائي الصغرى**: للنسائي -ومعه حاشيتي السيوطي والسندي- تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط. مكتبة المطبوعات الإسلامية، الطبعة الثالثة عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- **سير أعلام النبلاء**: للذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية العشرة، عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- **شرح صحيح البخاري**: لابن بطال، تحقيق: ياسر تميم، ط. الرشد.

- **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**: لابن القيم، تحقيق: عمر الحفيان، ط. العبيكان، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- **صحيح البخاري**: لمحمد بن إسماعيل البخاري، المطبوع مع فتح الباري.
- **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**: لعلاء الدين ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ك. مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- **صحيح ابن خزيمة**: لابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- **صحيح سنن أبي داود**: للألباني، ط. دار غراس، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٢م.
- **صحيح سنن ابن ماجه**: للألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- **صحيح مسلم**: لمسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، تصوير دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**: لابن القيم، تحقيق: علي الدخيل، ط. دار العاصمة ، الطبعة الثالثة، عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- **طريق الهجرتين وباب السعادتين**: لابن القيم، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، ط. دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٩هـ.
- **عمل اليوم والليلة**: للنسائي، تحقيق: فاروق حمادة، ط. دار الكلم الطيب، الطبعة الأولى، عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** (تفسير النيسابوري): نظام الدين النيسابوري، تحقيق: زكريا عميران، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: لابن حجر العسقلاني، حققه: عبد القادر شيبة الحمد، ط. دار العبيكان، الطبعة الأولى، عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- **فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية في التفسير**: للشوكاني، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، ط. دار الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه**: لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: أحمد الخياطي، طبعة وزارة الأوقاف المغربية، الطبعة الأولى، عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- **الفوائد**: لابن القيم، تحقيق: محمد عزير شمس، ط. دار عالم الفوائد، ط١، عام ١٤٢٩هـ .
- **فيض القدير شرح الجامع الصغير**: لزين الدين المناوي، ط. دار الفكر، -لا يوجد تاريخ الطبع-.
- **الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**: لابن القيم، تحقيق: عبد الله العمير، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

○ **كتاب التهجد وقيام الليل**: لابن أبي الدنيا، تحقيق: مصلح بن جزاء الحارثي، ط. مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

○ **كتاب الزهد**: لأحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية "مصورة"، ط١، عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

○ **كتاب الزهد**: لابن المبارك، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، -مصورة دار الكتب العلمية-، -لا يوجد تاريخ الطبع-.

○ **كتاب العظمة**: لأبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله المباركفوري، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٨هـ.

○ **كتاب الورع**: للمروزي، تحقيق: سمير الزهري، ط. مكتبة المعارف، ط٢، عام ١٤٢١هـ.

○ **لباب التأويل في معاني التنزيل**: للخازن، ط. مكتبة المثنى، بغداد.

○ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**: جمع ابن قاسم، ط. مجمع الملك فهد.

○ **محاسن التأويل** - المعروف بـ(تفسير القاسمي)-: لجمال الدين القاسمي، صححه ووقف على طبعه: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط١، عام ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م.

○ **مختصر قيام الليل**: للمروزي - والمختصر للمقريزي-، ط. دار عالم الكتب، الطبعة الثانية، عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

○ **مختصر منهاج القاصدين**: لابن قدامة المقدسي، تحقيق: علي الحلبي، ط. دار عمار، الطبعة الثالثة، عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

○ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: لابن القيم، تحقيق: حامد الفقي، ط. أنصار السنة المحمدية، عام ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

○ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

○ **مسند الدارمي -المعروف بسنن الدارمي-**: للدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد، ط. دار المغني، الطبعة الأولى، عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

○ **مشكل الآثار**: للطحاوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

○ **المصنف**: لابن أبي شيبة، تحقيق: حمد الجمعة ومحمد اللحيدان، ط. الرشد، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

○ **معالم التنزيل المعروف بـ(تفسير البغوي)**: للبغوي، تحقيق: عثمان ضميرية وآخرين، ط. دار طيبة، الطبعة الأولى من الإصدار الثاني، عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

- **معاني القرآن وإعرابه**: للزجاج، ت: عبد الجليل شلبي، ط.عالم الكتب، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- **مفاتيح الغيب**: للفخر الرازي، ط. البهية.
- **مفاتيح تدبر القرآن**: خالد اللاحم، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.
- **مفتاح دار السعادة**: لابن القيم، تحقيق: علي حسن الحلبي، ط.دار ابن عفان، الطبعة الأولى، عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- **المجالسة وجواهر العلم**: للدينوري، تحقيق: مشهور آل سلمان، ط. دار ابن حزم، الطبعة الأولى، عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- **المجموع شرح المهذب**: للنووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، ط. الإرشاد.
- **المحرر الوجيز**: لابن عطية الأندلسي، تحقيق: الرحالة الفاروق وزملائه، ط. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر، الطبعة الثاني، عام ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م.
- **المستدرك على الصحيحين**: لأبي عبد الله الحاكم، ط. دار المعارف العثمانية بالهند، تصوير مكتبة النصر الحديثة، -لا يوجد تاريخ الطبع-.
- **المصنف**: لعبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط.المكتب الإسلامي.
- **معجم الأدباء أو «إرشاد الأريب على معرفة الأديب»**: لياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، ط. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
- **المعجم الكبير**: للطبراني، حققه حمدي عبد المجيد السلفي، ط.دار إحياء التراث العربي ومكتبة المؤيد، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- **نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار**: لابن حجر العسقلاني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط. دار ابن كثير، الطبعة الثانية، عام ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: لبرهان الدين البقاعي، ط. الكتاب الإسلامي.
- **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: لأبي الحسن الواحدي، تحقيق: صفوان داودي، ط. دار القلم والدار الشامية، الطبعة الأولى، عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

فهرس الموضوعات

المقدمة ١٤

توطئة ١٥

ما يتوقَّف عليه التدبر إجمالًا ١٥

الشروط الأساسية للتدبر (إجمالًا) ١٥

ذِكْر حاصل أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ ١٧

بيان شروط التدبر ٢٢

الشرط الأول: وجود المحل القابل ٢٢

الشرط الثاني: العمل الذي يصدر من المكلف (الاستماع، أو القراءة مع حضور القلب) ... ٢٦

ذِكْرُ جملة من الأمور المُعِينة على التدبر مما يكون مُشْتَرَكًا بين الاستماع والتلاوة: ٤١

١ – إدراك أهمية التدبر وفائدته ٤١

٢ – استحضار عظمة المتكلم بالقرآن ٤١

٣– ما ينبغي أن تكون عليه تصوراتنا ونظرتنا للقرآن ٤١

٤ – استحضار أنك المُخَاطَب بهذا القرآن ٤٣

٥ – صدق الطلب والرغبة، وقوة الإقبال على كتاب الله عز وجل ٤٤

٦ – القراءة بنية الامتثال ٤٥

٧– تنزيل القرآن على الواقع ٤٨

الشرط الثالث: وجود قدر من الفهم للكلام المقروء أو المسموع ٤٩

– موانع التدبر ومعوقاته ٥٥

– ما يضعف التدبر ٥٩

الخاتمة ٦٦

ملحق في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ الآية. تعليق إجمالي على الآية من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله. ٦٨

فهرس المصادر والمراجع ٧٥